عن الاثم والعدوان وبذلك أعلا الله قدرهم فى الدنيا وأعد لهم فى الآخرة جنات النعيم .

فالمسلمون الذين يرجون رحمة الله ويخافون عذابه يجب عليهم أن ينزعوا من صدورهم العداوة والبغضاء ويطهروا أنفسهم من الضغائن والأحقاد . فمن غلبت عليه طبيعته ووجد من نفسه بغضاً لواحد من خلق الله وجب عليه أن يكف عنه يده ولسانه وأن يعالج نفسه حتى تبرأ من هذه الصفة التى نهى الله عنها ورسوله فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا » أخرجه أحمد والبخارى ومسلم

هذه هى آداب الاسلام وتعاليمه الكريمة التى لايفلح من حاد عنها . ولا يسعد من خالفها . ولا يشقى من تمسك بها . فنسأل الله تعالى أن يوفقنا لاتباعها فى كل شأن من شئونها ويهدينا الى سبيلها القويم وطريقها المستقيم ويقينا شر الحسد وغوائله إنه بعباده رءوف رحيم

الباب الثالث

فى ذكر بعض صفات النفس الممدوحة

تمهيد

قد علمت فى أول الكتاب أن الانسان مركب من أمرين . أحدهما الجسم المادى المؤلف من العناصر المختلفة . والثانى العقل وإن شئت فسمه بالنفس أو الروح . وهو الذى يمتاز به الانسان عن الحيوان وبه يدرك الخير والشر ويعرف الفضيلة والرذيلة . وما سوى العقل من وجدان وحس باطن وظاهر فانه عون للعقل على ذلك الادراك .

فالانسان يحكم بأن هذا ممدوح وذاك مذموم وهذا خير وذاك شر بالبراهين التى يرتب العقل مقدماتها مما يصل إلى الحواس الباطنة والظاهرة من المشاهدات والتجارب والأخبار الصادقة والنظر فى أراء الأمم وأحوال الناس . على أن العقل الانسانى مهما أوتى من قوة فانه يصيب ويخطئ فلا بد له من الاستناد إلى قوة معصومة من الخطأ حتى يكون حكمه صحيحاً دائما . وتلك القوة هى قوة الوحى الالهى الذى أشار الله تعالى اليه بقوله (ماضل صاحبكم وماغوى وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى) فعند ماتضل العقول وتشتبه عليها الأدلة وتضطرب لديها المقدمات ترجع الى ميزان الوحى فتهتدى وتنظر فيما أتى به الدين فتسكن لأنه من لدن عليم خبير لاتخفى عليه خافية من خلقه . ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فما يأمر به الدين فهو فضيلة . وما ينهى عنه فهو رذيلة وما يستقبحه فهو شر . وما يستحسنه فهو خير .

هذا هو الذى يعول عليه المسلمون الذين يعرفون حقيقة الاسلام . ويعلمون أنه لم يترك فضيلة من الفضائل عند ذوى العقول السليمة الا أمر بها وحث عليها . ولم يدع رذيلة من الرذائل الا نهى عنها ونعى عليها . ولم يأمر بشيء أو ينه عنه الا اذا كان فى فعله . أو تركه مصلحة تعود على الأفراد والجماعات . وهو مع هذا لم يحظر على العقول أن تنظر فيما جاء به . بل جعل لها مجالا واسعا فى النظر والاستدلال والبحث والتفكير وشجع الباحثين على استنباط مافيه المصلحة للناس بالوعد الكريم . فجعل لهم على بحثهم أجراً عند ربهم حتى ولو أخطأوا فى اجتهادهم مادامت النية الصالحة موجودة . وما دام الواحد منهم قد بذل منتهى الجهد وأقصاه بشرط أن لايخرج عن قواعد الدين العامة وأن لايصطدم بأصوله المتفق عليها من كتاب وسنة واجماع يرتكز على الكتاب والسنة لأن الخروج على تلك الأصول هو ضلال العقل الذى ذكرنا فاذا رجع الى تلك القواعد وأعاد النظر فيها المرة بعد المرة وتأمل فيما يشتبه فيه من أمرها فانه لابد أن يهتدى الى الصواب ويدرك أن علة اشتباهه ترجع الى عدم دقة النظر وعدم فهم المقدمات .

ومن هذا تعلم أن العقل هو الذى يحكم بأن هذا ممدوح وذاك مذموم معتمدا فى ذلك الحكم بالدين ومستندا اليه فى كل شأن من الشئون . وإن شئت فقل إن العقل يحكم بقضايا الدين فاذا خرج العقل عن قواعد الدين فقد ضل وغوى .

ويمكنك أن تستفيد من مجموع ماتقدم فائدتان .

﴿ الفائدة الأولى ﴾ أن الدين الاسلامى انما يحكم على الأشياء بالمدح والذم باعتبار مايترتب عليها من المنافع والمضار التى تعود على الأفراد والجماعات لأن كل تشريعه مبنى على قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد . فما يترتب عليه المصلحة فهو حسن ممدوح . وما يترتب عليه مفسدة فهو قبيح مذموم . واذا تعارضت المصلحة مع المفسدة قدم درء المفسدة على جلب المصلحة . ويؤخذ من هذا أن الحكم على الشيء بأنه خير أو شر . فضيلة أو رذيلة ليس باعتبار ذاته بل باعتبار مايترتب عليه من المنافع والمضار . فالصدق فضيلة والكذب رذيلة . ولكن اذا ترتب على الكذب خير يعود على الفرد والجماعة . وترتب على الصدق ضرر فان كان ذلك الضرر يعادل إثم جريمة الكذب أو يفوقها كما اذا كان يترتب عليه ازهاق نفس أو هزيمة جيش . فان الشريعة الاسلامية تحتم الاخبار بغير الواقع دفعا لمفسدة قتل النفس وإذلال الأمة بهزيمة جيشها . اذ ليس الاخبار بالواقع فضيلة فى ذاته . بل باعتبار مايترتب عليه من تحصيل المنافع ودفع المضار التى بيناها لك فى مبحثه . وهكذا فى سائر الأمور

ومعنى هذا أن الانسان إذا طلب الفضيلة لينال من ورائها منفعة شخصية أو منفعة عامة كان ذلك جائزا فى نظر الدين . وهو كذلك لأن الله تعالى وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ووعده سبحانه لابد أن يتحقق كما قال (إن الله لايخلف الميعاد) وقال (ولا تحسبن الله مخلف وعده رسله) الى غير ذلك من الآيات الصريحة فى أن وعده لايتخلف فمن تمسك بالفضائل التى أمر بها الدين واجتنب الرذائل التى نهى عنها . ليحيا فى الدنيا حياة طيبة . ويعيش عيشة هنيئة ويظفر فى الآخرة بالسعادة وهى النعيم الخالد والملك المقيم . فهو ممدوح كل

المدح وهذا يؤيد قول من يقول ان الانسان لايطلب الفضيلة الا لما يترتب عليها من منفعة عامة أو منفعة شخصية . والأول يسمى مذهب السعادة العامة . والثانى يسمى مذهب السعادة الشخصية إلا أن الدين الاسلامى يشترط فى المنفعة أن لاتتعارض مع قواعده فلا يترتب عليها اخلال بحقوق الناس أو بحقوق الله والا كانت الفضيلة التى تترتب عليها المنفعة رذيلة فى نظر الدين

هذا هو الرأى السديد وما سواه فهو زخرفة فى القول واحلال للنظريات محل العمليات . فمن قال ان الفضيلة تطلب لذاتها بقطع النظر عما يترتب عليها من المنافع واللذات . وإن الرذيلة تجتنب لذاتها بقطع النظر عما يترتب عليها من المضار والآلام لايريد الا أن يبالغ فى تنزيه الانسان . أو يتمنى أمنية محبوبة للنفوس وهى أن الانسان ينبغى له أن لايحفل بنعيم ولا شقاء . ولا يبالى بمنفعة ولامضرة بل يسعى لما يعتقدأنه فضيلة بفطرته . فانه أرقى من أن تبعثه اللذة ويمنعه الألم ويسمى هذا مذهب اللقانة — البصيرة — والواقع أنه مذهب غير عملى لاينطبق على فطرة الانسان ولا يمكن أن يقع فى الوجود . اللهم الا اذا خلق الانسان خلقا جديدا . وذلك لأنه لاريب فى أن الناس مسوقون فى هذه الحياة بعوامل اللذة والألم فلا يخطو الواحد منهم خطوة ولا يتحرك حركة الا اذا اعتقد أن من ورائها خيرا له ومنفعة تعود عليه . ولقد علم الله سبحانه ذلك من طبيعة عباده . فأرسل لهم رسلا مبشرين ومنذرين يرغبون أهل الفضائل فى الجنة ويحذرون أهل الرذائل من النار وجاءت الشريعة الاسلامية لتبين للناس حدود الخير والشر وما يجب على الانسان وما يجوز تحصيله من المنافع الشخصية والمنافع العامة . وعرّفت كل واحد ماله وما عليه من الحقوق لنفسه ولغيره من الأفراد والجماعة كما سيأتيك بيانه مفصلا فى الجزء الثانى فى الواجبات الدينية ان شاء الله

ووعدت من اتبع ارشادها وعمل بما جاءت به بأن ينال من اللذات مالا عين رأت ولا أذن سمعت وأن يحظى فى اليوم الآخر بكل ماتشتهيه نفسه وتقر به عينه من نعيم دائم وسعادة خالدة فضلا عما يظفر به من حياة طيبة فى الدنيا خالية من الأمراض النفسية والبدنية وقائمة على رفعة القدر وسمو المنزلة . كل ذلك ليعمل الناس بما تقتضيه الفضائل وينتهوا عما تتطلبه الرذائل . ولا سبيل لحملهم على ترك المنافع واللذات التى تنافى الفضيلة الا بتخويفهم من عاقبة أمرها ووعدهم على الصبر على هجرها بلذات دائمة مستمرة . لايعقبها عناء . ولا يتبعها ندم . ولا تساوى لذات الدنيا الى جانبها شيئا .

ولقد كان المسلمون فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم يتمنون القتل فى سبيل الله ليظفروا بالنعيم الخالد وكانوا يقولون (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم الجنة) وليس بعد القتل ألم ولكنه أصبح لذة لما يعقبه من سعادة دائمة ونعيم خالد وهكذا فى كل شأن من الشئون . فان الناس لايعملون الا طمعا فى الخير وفرارا من الشر أو بالتالى طمعا فى الثواب وفرارا من العقاب .

لعلك تقول ان من قواعد الاسلام الاخلاص فى العمل لله تعالى وهذا يستلزم أن يعبد لذاته ويطاع من غير شرط ولا قيد . ولهذا نقل عن بعض العباد أنهم كانوا يقولون اننا لانعبد الله خوفا من نار ولا طمعا فى جنة واذا كانت نتيجة عبادتنا ذلك فقد خسرنا وهذا القول صحيح من بعض نواحيه لأن الذى يعمل على مرضاة سيده بدون أن ينتظر جزاء أكرم وأعز من الذى ينتظر

الأجر . وأن الذى يخلص لحبيبه الطاعة حتى ولو عذبه لايقاس بالذى يعمل ليأخذ جزاء . ولكن اذا حللت المسألة تحليلا دقيقا . علمت أن المخلصين فى الواقع يطلبون جزاء أكبر ولذة أعلى لانهم انما يطلبون بذلك مرضاة الحبيب وهذا أكبر أجر لان من يرضى القادر الذى بيده مكافأة العاملين فانه يكون له من الجزاء أكبر حظ وأوفر نصيب . فاذا بحثت حال العباد الذين راضوا أنفسهم وتجردوا عن كل اللذات الجثمانية وهجروا جميع الشهوات الحيوانية فانك تجدهم لم يفعلوا ذلك الا لما يبتغونه من لذة أكبر مما هجروه وسعادة حسية أو معنوية يقدرون الوصول اليها من هذه الطريق وأقلها انكشاف الحقائق العلمية . وأعلاها مرضاة الله تعالى والنظر الى وجهه الكريم أما الاخلاص فانه لاينافى ذلك لأن معناه أن يعبده لالغرض يطلبه من غيره . أما اذا كان يعبده وحده ليرضى ويجزل له العطاء فان هذا نهاية الاخلاص . ولئن كانت الشريعة قد حثت على الاخلاص فانها قد وعدت عليه أحسن الوعود ورتبت عليه أحسن الجزاء فى دار النعيم

وجملة القول فى ذلك أن على الانسان أن يطلب الفضائل التى أمر بها الدين وحث عليها . ويجتنب الرذائل التى نهى عنها ابتغاء مرضاة ربه لا لغرض من أغراض الدنيا ولا لشهوة من شهواتها التى لا يقرها الدين كما علمت فى مبحث الرياء . أما اذا كان غرضه من عمله ما عند الله من نعيم الجنة فانه حسن ممدوح بلا نزاع . فان كانت ملاحظة ذلك تشجعه على العمل وتعينه عليه كان ذلك واجبا .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ ان حكمه على الأشخاص بالمدح والذم انما هو باعتبار مقاصدهم ونواياهم كما قال صلى الله عليه وسلم « انما الأعمال بالنيات » فمن قصد الى عمل خير قصدا صحيحا يريد به وجه الله تعالى واستمسك بكل الوسائل الموصلة اليه بدون تقصير ولا اهمال . ثم ترتب عليه شر فانه يكون ممدوحا . ومن قصد الى شر فترتب عليه خير فانه يكون مذموما . مثلا المجتهد الذى ينوى الوصول الى الحق فى مسألة من المسائل ثم استمسك بجميع الوسائل التى توصله الى غرضه وبذل أقصى جهده فى ذلك ولكنه أخطأ ووصل بمقدماته الى عكس المطلوب فانه يكون ممدوحا ويثاب على نيته وما بذله من مجهود . ومثله الطبيب الذى يبذل أقصى جهده فى معالجة مريض ثم يخطئ فى وصف الدواء فيترتب عليه هلاك المريض فانه يكون ممدوحا . وانما يذم اذا أهمل فى العناية المطلوبة منه . وعلى العكس من ذلك . اذا أراد شخص غش آخر وايذاءه فأشار عليه بسلوك طريق يظن أن فى سلوكه إياها هلاكه فسلكها فظفر فيها بكنز أو كانت سببا فى نجاته من شر فانه يكون مذموما باعتبار قصده ونيته . فالعبرة انما هى بالنية على كل حال .

واذا علمت هذا فانك تستغنى به عن الأبحاث الكثيرة والخلافات المتشعبة فى البحث عما تعرف به الفضيلة والرذيلة ويدرك به الخير والشر . فان ذلك أمر قد فرغ منه بما قرره الدين وأجمع عليه أرباب العقول السليمة .

ومن أجل ذلك اضربنا صفحا عن كل ماقيل فى هذا . لأنه ليس من غرض الدين . وانما غرض الدين معرفة ما يمدحه الدين وما يذمه وما يأمر به وينهى عنه . فما يأمر به ويمدحه فهو الفضيلة . وما يذمه وينهى عنه فهو الرذيلة . فالفضيلة فى نظر الدين الخلق الحسن

الذى يترتب عليه آثار صالحة . والرذيلة الخلق السيء الذى يترتب عليه آثار سيئة . وقد قدمنا لك معظم الأخلاق الصالحة وضدها فى البابين السابقين فلنذكر فى هذا الباب طائفة من الصفات الفاضلة التى فاتنا ذكرها هناك مبتدئين منها — بالعدل — لأنه أساس الفضائل

العـــدل

هو التوسط بين طرفى الافراط والتفريط فى ثلاث قوى . القوة الأولى الشهوية. القوة الثانية الغضبية . القوة الثالثة العقلية . فاعتدال هذه القوى هو العدل . وقد ذكرنا لك فى بابى الشهوة والغضب ما يمكنك أن تعرف منه ذلك حق المعرفة . فان من يتوسط فى شهوته البهيمية وغضبه فلا ريب فى أنه يكون عادلا مع غيره ومع نفسه فأما عدله مع غيره فلأن التوسط فى الشهوة البهيمية هو العفة المتوسطة بين الخلاعة والجمود . والتوسط فى الغضب هو الشجاعة المتوسطة بين الجبن والتهور ومن كان كذلك فانه ينصرف عن ايذاء الناس وظلمهم فى أعراضهم واموالهم وانفسهم ويحمله على اعطاء كل ذى حق حقه . وأما عدله مع نفسه فلأنه يستمتع بالحلال الطيب من رزق الله وينجو من عار الجبن وعدم الغيرة على عرضه وماله ودينه ويسلم من فضائح الشهوة . كل ذلك فى الدنيا وله فى الآخرة أحسن الجزاء

وأما القوة العقلية فاعتدالها معناه الحكمة وهى متوسطة بين البلادة والغرور وهى تتناول حكمة الاعتقاد . وحكمة العمل . وحكمة الأخلاق . فاما حكمة الاعتقاد فمنها توحيد الله تعالى وتنزيهه عن كل مالا يليق به وهو متوسط بين رذيلتين . نفى الألوهية رأسا كما تقول الدهرية او اعتقاد الهين أحدهما معطل كما تقول الثنوية . واما حكمة العمل فهى اداء الواجبات بلا افراط أو تفريط وهو متوسط بين ترك العمل رأسا أو المبالغة فيه كما اذا ترك المباحات تشبها بالرهبان وأما الحكمة الأخلاقية فهى كالجود المتوسط بين الاسراف والشح ونحوه مما قدمناه لك فمن اعتدلت فيه هذه القوى الثلاث كان عادلا حقا

وتفسير العدل بهذا المعنى أحسن مايفسر به ومنه يؤخذ أن العدل رأس الفضائل وأساس الخير وأن الظلم منبع الرذائل ومصدر الشرور وهو يؤيد من يقول ان أساس الفضائل خضوع الشهوة والغضب للعقل فمن جعل لعقله سلطانا كاملا عليها فلم يفرط ولم يفرط بل اتبع سبيلا وسطا فقد ملك زمام الفضائل وهذا الرأى هو اسد الآراء التى ذكرت فى هذا الموضوع واقربها للصواب . وقد اعترض عليه بعض الناظرين بأن بعض الصفات النفسية لا يظهر لها طرفان كالعدل فانه ليس هناك سوى عدل وظلم فلم يكن العدل وسطا بين رذيلتين مع أن هذا المذهب يستلزم أن كل فضيلة ممدوحة لا تكون الا بين طرفين مذمومين . وأيضا فان بعض الصفات لا يظهر كونها وسطا لكونها أقرب الى أحد الطرفين من الطرف الآخر كالشجاعة فانها أقرب الى التهور منها الى الجبن وكالكرم فانه أقرب

الى الاسراف منه الى الشح . والاعتراضان ساقطان أما الأول فلأنك قد علمت أن العدل هو نفس الوسط المعتدل فالمعترض فسره بغير ما يراد منه ومثله غيره من الصفات النفسية التى لا يظهر لها طرفان عند بعض الناظرين . وأما الثانى فليس المراد أن تكون الأبعاد متساوية من جميع الجهات وأن تكون الفضيلة موجودة فى حاق الوسط — أى وسط الوسط — بالدقة بل المراد أن يكون لها طرفان مذمومان ولو كانت الى احدهما أقرب من الآخر

وبعضهم يقول ان اساس الفضائل هو المعرفة الصحيحة فمن عرف أن هذا حق وذاك شر فانه ينبعث الى فعل الخير وترك الشر فما يقع من المظالم والشرور فهو نتيجة الجهل أما ما نراه من وقوع الشر من العالم به فذلك لأنه لم يعلم به على وجه صحيح ولم تتأثر به نفسه حقا . ألا ترى أن من علم أن فى هذا الجحر ثعبانا لا يضع يده فيه والواقع أن هذه سفسطة ظاهرة لان العلم لا يستلزم العمل بلا نزاع واما ماذكره من أن العالم بالثعبان لا يقدم عليه فذلك لأن ضرره عاجل لم يعارض بلذة أخرى ولم يعلل بعلة تسهل فعله فهذا القول خطأ واضح

هذا وقد فسر بعضهم العدل بتفاسير أخرى غير ماذكرنا ولكنها كلها ترجع الى هذا التفسير فمن ذلك ما روى عن عمر بن عبد العزيز أنه دعا ببعض العلماء وطلب منه أن يصف له العدل فقال له كن لصغير الناس أبا ولكبيرهم ابنا وللمثل منهم أخا وللنساء كذلك وعاقب الناس على قدر ذنوبهم وعلى قدر أجسادهم ولا تضربن لغضبك سوطا واحدا فتكون من العالين . وبديهى أن ذلك يرجع الى اعتدال بعض القوى التى ذكرناها آنفا ومثله ما نقل عن بعضهم من أن العدل استواء السريرة العلانية فى العمل فان من كان عمله الظاهرى مطابقا لاعتقاده وكان اعتقاده صحيحا فقد اعتدلت فيه قوة الاعتقاد وقوة العمل وهكذا

اقسام العدل

ينقسم العدل الى ثلاثة اقسام عدل المرء مع نفسه وعدله مع غيره وذلك الغير اما أن يكون فرداً أو جماعة فاما عدله مع نفسه فقد علمت أنه سلوك سبيل الاعتدال فى العقيدة والعمل فلا يتمرد على الله تعالى ورسله ولا يخرج عن البراهين الصحيحة ولا يلقى بنفسه فى تيار الشهوات القاتلة ولا يطيع غيه وهواه وبذلك ينجو من شقاء الدنيا ويسلم من امراض الشهوات البدنية والعقلية ويقى نفسه ناراً وقودها الناس والحجارة يوم يقوم الناس لرب العالمين ومن لم يفعل ذلك فقد ظلم نفسه وعرضها للهلاك والخسران فى الدنيا والآخرة

أما عدله مع غيره فانه يترتب عليه تلك النتيجة التى ذكرناها وهى السلامة فى الدنيا من شرور الناس وحقدهم عليه والأمن على نفسه واهله وما أنعم الله عليه من نعم فى دار الدنيا والنجاة من هول يوم القيامة والسعادة الخالدة فى دار النعيم وله أمثلة كثيرة نكتفى بذكر المهم منها هنا

المثال الاول . عدل ولاة الأمور مع رعيتهم وهو أهم أنواع العدل وأعلاها قيمة وقدراً لأنه يترتب عليه سعادة المجتمع وصلاح أفراده فان الحاكم العادل لايقصر فى شيء من واجبه مع رعيته ولا يهمل شيئا يرقى أبدانهم وعقولهم وأخلاقهم ويحفظ عليهم أموالهم ودماءهم وأعراضهم ويكون لهم مثلا أعلى فى معاملة بعضهم بعضا بالعدل والانصاف . فالحاكم كالقلب من الجسد إذا صلح صلح وإذا فسد فسد كما ورد فى الصحيح فلهذا كانت مسئولية ولاة الأمور عظيمة فى نظر الشريعة الاسلامية وقد حذر منها النبي عليه أفضل الصلاة والسلام تحذيراً شديداً

روى عن أبي ذر رضى الله عنه « قال قلت يارسول الله ألا تستعملنى قال فضرب بيده على منكبي ثم قال يا أبا ذر انك ضعيف وإنها أمانة وانها يوم القيامة خزى وندامة الا من أخذ بحقها وأدى الذى عليه فيها » رواه مسلم

وحقها فى نظر الدين أن يقوم بكل شيء فيه مصلحة المحكومين . قال سيدنا عمر والله لو عثرت بغلة فى العراق لوجدتنى مسئولا عنها فقيل لماذا ياأمير المؤمنين فقال لأننى مكلف باصلاح الطريق . هذا مثال الحاكم العادل ولهذا جعل الله له فضلا عظيما وميزة كبيرة . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبعة يظلهم الله يوم لاظل الا ظله امام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله ورجل قلبه معلق بالمساجد . ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه . ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال انى أخاف الله . ورجل تصدق بصدقة فاخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه .ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه »

ولقد اشتمل هذا الحديث الشريف على جميع الكمالات الانسانية فالامام العادل هو الذى تنصلح به رعيته ويستقيم به امر دينها ودنياها وهو اعظم السبعة قدراً وأجلهم منزلة ومن أجل هذا بدأ به عليه الصلاة والسلام .وأما الشاب الذى نشأ فى طاعة الله فهو خير لنفسه ولغيره لأن من يتعود العمل الصالح لاتطغى عليه شهوته فلا يقع منه شر لنفسه ولا لغيره . وأما الذى قلبه معلق بالمساجد ليؤدى فيها الصلاة التى فرضها الله عليه فى اوقاتها ويحرص على عمارتها فان صلاته تنهاه عن الفحشاء والمنكر لأن من يتعلق بالمساجد لابد أن يكون ذلك ناشئاً من خشية الله تعالى ومن شعر قلبه بخشية ربه وصلى له خاشعا خاضعا فانه لامحالة ينتهى عن الفحشاء والمنكر فلا يقع منه شر لنفسه ولا لغيره . واما المحبة فى الله تعالى فمعناها التعاون على البر والتقوى فمن أحب غيره لهذا الغرض فقد خدم نفسه وخدم الناس اجل خدمة . واما الذى دعته امرأة ذات حسب وجمال لنفسها فامتنع خوفا من الله فهو ذلك الرجل الذى ملك شهوته وجعل لعقله عليها سلطانا عظيما فهو امين على عرضه وعلى أعراض الناس وجدير أن تكون له تلك المنزلة . واما الذى يتصدق بصدقات خفية فهو ذلك الرجل الذى هو خير وبركة على عباد الله فانه يغيث المكروب ويطعم البائس والمضطر ولا يحب أن يمن على الفقير فيؤذيه بمنه ولا يحب ان يعمل رآء الناس فان مدحوه فعل وان لم يمدحوه ترك ومثل هذا جدير برضاء الله تعالى وحسن جزائه . وأما الذى تفيض عيناه عند ذكر ربه فهو المؤمن حقا الذى قال الله فيه (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم)

فهؤلاء السبعة جديرون برحمة ربهم واحسانه واهل لأن يقيهم الله تعالى هول يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد

ويتبع عدل الولاة والسلاطين عدل القضاة والشهود وهو أهم ركن تقوم عليه سعادة المجتمع وينبني عليه أمن الناس على دمائهم وأعراضهم وأنفسهم فاذا جار القاضي ولم يقسط الشهود فان النظام يختل وتسود الفوضى ولهذا كانت مسئولية القاضي شديدة في نظر الاسلام فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « القضاة ثلاثة واحد في الجنة واثنان في النار فاما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به . ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار . ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار » رواه ابو داود والترمذي وابن ماجه

فالقاضي الممدوح في نظر الدين هو الذي يعرف الحق ويقضي به فاما معرفة الحق فانها تحتاج الى مجهود عظيم وبحث في كل الظروف والاحوال المحيطة بالخصوم واما الحكم بالحق فانه يحتاج الى مجاهدة عظيمة حتى يتنزه القاضي عن التحيز والميل مع أقربائه أو أصدقائه أو من تربطه معهم رابطة أو تجمعه معهم جامعة أو يكون له في الميل غرض يناله من مال أو منصب أو شهوة . فالقاضي لاينجو إلا إذا كان بالنسبة إلى الخصوم كالميزان المضبط . فلا يميل مثقال ذرة إلى واحد منهم إلا بالحق . ومن لم يفعل ذلك فانه يتحقق فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ولي القضاء أو جعل قاضيا بين الناس فقد ذبح بغير سكين » رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد ورواه غيره

ومعنى الحديث أنه عرض نفسه للهلاك والعذاب الأليم . وهذا إن لم يقض بالحق كما تقدم في الحديث الأول .

وبديهي أن الركن الأعظم الذي يعرف القاضي به الحق هم الشهود فاذا تحيزوا وشهدوا زوراً وضللوا القاضي فقد احتملوا كل هذه المسئولية وكانوا من أشقى الخلق وأتعسهم عند الله وعند عباده

من أجل ذلك قال الله تعالى (يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً)

قوامين . مواظبين على العدل في جميع الشئون والأحوال فلا يحل لكم أن تتخلفوا عنه في أي حال . شهداء لله . تشهدون بالحق ابتغاء مرضاة الله تعالى فلا تحملكم الأغراض الدنيوية على التحيز وشهادة الزور . ولو على أنفسكم . مبالغة في الحث على أداء الشهادة على وجهها لأن الشهادة لاتقع من الانسان على نفسه . وإنما الذي يقع منه يسمى إقراراً إلا إذا أريد بالشهادة بيان الحق مطلقاً فتشمل الاقرار . أو الوالدين والأقربين . رأى بعض أئمة المسلمين أن شهادة الولد لوالديه وبالعكس جائزة أخذاً من هذه الآية . ولقد روى بعضهم أن سلف المسلمين كانوا على ذلك حتى تغيرت أخلاق الناس فعدلوا عن ذلك . وقد علمت أن الغرض انما هو المبالغة في الحث على قول الحق . فلا

يلزم منه ماذكر . وقوله إن يكن غنيا أو فقيراً . معناه أن الشاهد ينبغى أن لايلتفت لأى سبب من الأسباب الموجبة للتحيز سواء كانت صلة قرابة أو كانت عاطفة شفقة أو رحمة كما إذا خشى أن يشهد على فقير فيضره فى ماله أو كانت هيبة وخوفا من غنى . أو غير ذلك . بل يجب على الشاهد أن لايعرف فى هذا المقام سوى الله تعالى الذى يأمره بأن لاينثنى عن قول الحق قيد شعرة . فلا تحملكم أهواؤكم وأغراضكم على أن لاتعدلوا فى حقوق الناس . وإن تلووا . ألسنتكم فلا تأتوا بالشهادة على وجهها . أو تعرضوا . عن أداء الشهادة رأساً . فان الله كان بما تعملون خبيراً . فيجزيكم على ما عصيتموه .

وقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لاتعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون)

لايجرمنكم . لايحملنكم . شنآن قوم . شدة بغضكم لهم . على أن لاتعدلوا . فى حقوقهم . اعدلوا . أيها المؤمنون فى أعدائكم وأوليائكم فان العدل . هو أقرب للتقوى . أى أدخل فى مناسبتها وأشد الأمور شبها بها لأن التقوى نهاية الطاعة والعدل أساس الفضائل

فهذا قول الله وقول رسوله فى الحث على عدل ولاة الأمور والقضاة والشهود . فعلى المسلمين أن يعملوا به وأن يتبعوه فى كل أمورهم ليظفروا بالسعادة فى الدنيا والآخرة ويكونوا من الفائزين

المثال الثانى : عدل رؤساء الأسر والقبائل . فاذا وفق رئيس أسرة أو زعيم قوم إلى إقامة العدل بينهم فانه يحيا معهم حياة طيبة مباركة ويعيش هو وهم عيشة راضية مرضية . فان عدل الرئيس يوجب استمرار روابط المودة والوئام بينه وبينهم من جهة وبينهم وبين بعضهم من الجهة الأخرى فضلا عما يترتب على ذلك من اقتدائهم به قدوة حسنة . فانه يكون مثالا صالحا للصغير والكبير فيشب الصغير على حب العدل مع نفسه ومع غيره ويعامل الكبير الناس بالعدل . وبذلك يكتفون شر المظالم الداخلية والخارجية .

أما إذا كان الرئيس ظالما فانه يكون شراً ووبالا على نفسه وعلى مرءوسيه فان المظلوم منهم يحقد عليه وعلى من ظلمه لأجله فتنقطع بينهم روابط القربى وعلاقات المودة ويمعن كل واحد فى الاضرار بالآخر . فضلا عما يسرى لهم من خلق الظلم فيتسلطون على خلق الله فيظلمونهم كما ظلمهم وبذلك يكونون من أشقى خلق الله

ولقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم كل من نيط به عمل مسئولا عن العدل فى ذلك العمل وليس العدل قاصراً على السلاطين وولاة الأمور . فقال عليه الصلاة والسلام « كلكم راع ومسئول عن رعيته . الامام راع ومسئول عن رعيته . والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته . والمرأة راعية فى بيتها ومسئولة عن رعيتها . والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته . وكلكم راع ومسئول عن رعيته » رواه البخارى ومسلم . وهذا الحديث صريح فى أن كل فرد من الأفراد مطالب بتحقيق العدل بنسبة مايكلف به من الأعمال . فرئيس الأسرة والقبيلة يجب عليه أن يعمل على تحقيق العدل بينهم . فلا يظلمهم فى مطعم أو مشرب أو مسكن ولا يدنى هذا ويقصى ذاك بدون سبب يستدعى ذلك من عقوبة على ذنب ومكافأة على خير . ولا يهمل أمر تربيتهم

وتعليمهم مالهم وما عليهم من الواجبات . ولا يقصر مع واحد منهم فى تعليمه ماينفعه فى دينه ودنياه . ولا يذرهم يعتدون على أموال الناس أو أعراضهم . ويتعهد تهذيب نفوسهم وإصلاح أخلاقهم . فاذا ترك الرئيس شيئا من ذلك فانه يكون ظالما مسئولا عن تقصيره هذا وعن كل مايترتب عليه من المآثم بين يدى أحكم الحاكمين الذى لايعزب عن علمه مثقال ذرة وسيجزى الناس على أعمالهم يوم يبعثون

وأما المرأة فانها مسئولة عن تدبير منزلها بما يوافق حال زوجها . فلا ترهقه فى الانفاق ولا تظلمه بطلب مالا يقدر عليه ولا تخونه فى عرضه . ولا تفعل مايؤذيه . وكذلك يجب عليها أن تعدل بين أبنائها فيما بين يديها من طعام وشراب . فلا تفضل واحداً على صاحبه من غير حق بل تعطى كل واحد مايناسبه . فلا تحرم من تبغض وتجزل العطاء لمن تحب . فان خانت زوجها فى عرضه أو ماله . أو آذته بعصيانها . أو فضلت بعض أولادها على بعض كانت ظالمة تستحق عند الله سوء العقاب

وأما الخادم أو العامل فهو مسئول عن العمل الذى يسند اليه والمال الذى يؤتمن عليه . فاذا أهمل العامل عملا أو أداه ناقصا فقد ظلم سيده واستحق عقاب الله تعالى . وكذلك الخادم إذا خان سيده فى مال كأن كلفه بشراء شىء فزاد فى ثمنه وأخذه لنفسه أو أهمل مساومة التاجر فغبنه فى السلعة أو رأى أحداً يعتدى على مال سيده فلم يرده أو كلفه بالانفاق على عمل فأسرف فيه بدون حق أو غير ذلك فانه يكون آثما ظالما يستحق العقوبة التى أعدها الله للظالمين فى الدنيا والآخرة

ومن هؤلاء الصناع الذين يتعاقدون على عمل شىء ثم لايجيدون صنعه ويغشون الناس فان لهم عقاب الظالمين وعليهم إثم الغاشين . كالبنائين والنجارين والحدادين ونحوهم . فان هؤلاء جميعا مكلفون بالعدل فى صنائعهم بأن يجيدوها ولا يتركوا باباً من أبواب الخلل إلا أصلحوه . ومتى فعلوا ذلك لوجه الله تعالى وابتغاء ماعنده . فان الله يبارك لهم فى أجورهم فى الدنيا ويثيبهم على ذلك فى الآخرة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع » رواه ابن حبان فى صحيحه . فهؤلاء مسئولون جميعا عن العدل فى أعمالهم فمن حفظ ماوكل اليه من الأعمال فله جزاء الحسنى . ومن ضيعه فله سوء العذاب .

الرحمة والاحسان والرفق

هذه الصفات من أجل الصفات الانسانية الممدوحة وهى كالعدل . والكرم من الصفات التى يشارك الانسان خالقه فى الاتصاف بها وإن كانت صفات الانسان حادثة يمكن تحديدها . وأما صفات الاله فهى تابعة لذاته فى التعقل . فكما أن ذاته تعالى قديمة لاأول لها ولا آخر لوجودها . فكذلك صفاته . وإنما تعرف بآثارها التى تعجز صفات الحوادث عن التعلق بمثل ماتتعلق به . فالرحمة رقة فى القلب تستلزم معاملة الناس بالاحسان وهو التفضل باسداء الجميل . ولكنها فى الاله سبحانه صفة

تسع التائبين من المذنبين والكافرين فيمحو الله عنهم برحمته ماافترفوه من سيآت وارتكبوه من جرائم. وتسع الانسان والحيوان والدواب فيسخر لهم برحمته من وسائل الرزق وأسباب الحياة من ماء وهواء ونبات وشمس وقمر وحر وبرد ما لولاه لهلكوا. وتسع العصاة الذين يفسدون فى الأرض إلى أجل ما حتى يكون لهم الوقت الكافى لمراجعة أنفسهم والكف عن عصيانهم. وتسع كل شيء فى هذا الوجود كما قال تعالى (ورحمتى وسعت كل شيء)

أما حقيقة هذه الرحمة فليس علينا أن نعرفها إذ لم يكلفنا الله بها وهيهات أن نعرفها أو نقف على حقيقتها بل الذى علينا أن نؤمن بأن الله رحمن رحيم وأن نعرف أن رحمته وسعت كل شيء كما بينا ونؤمن بأنه تعالى ليس كمثله شيء وأنه منزه عن مماثلة الحوادث ذاتا وصفة. هذا معنى الرحمة. ومثلها الرأفة إلا أن الرأفة زيادة الرحمة. وأما الاحسان فانه ينقسم إلى قسمين

الأول : إحسان الشيء بمعنى إتقانه وهذا يتعدى بنفسه فيقال أحسنه إذا أتقنه وقد فسر بأنه الاتيان بالأعمال على الوجه اللائق وفسره صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح بأن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك وهذا هو معنى الاتيان بالأعمال على الوجه اللائق لأن من يراقب الله فى أعماله وقلبه ممتلىء بجلاله وعزته حتى كأنه ماثل أمامه فانه لابد أن يأتى بها على الوجه اللائق فلا يخرج عن الحدود التى سنها الله تعالى . وكذا من كان يعمل وهو مؤمن بأن الله مطلع عليه لاتخفى عليه خافية من أمره فانه لايعمل الا ما أمره به على الوجه الأكمل. وهذه المرتبة أقل من الأولى لأنه فى الأولى يعمل كأن الله حاضر أمامه بذاته فيستحى منه كل الحياء. وأما الثانية فانه يرى الله غائبا عنه ولكنه حاضر بعلمه فيحذره ويخشاه

الثانى : الاحسان بمعنى التفضل وهو يتعدى بالى فيقال أحسن إلى الناس إذا تفضل عليهم وأسدى اليهم الجميل فضلا منه وكرما. فالاحسان هو أن يفعل الانسان الواجب عليه مع الناس ويزيد عليه فهذه الزيادة فى عمل البر والخير مع الأفراد والجماعة تسمى إحسانا . وقد فسر بعضهم الاحسان بترك الاساءة فمن فعل الواجب مع الناس وكف عن الاضرار بهم كان محسنا وإن لم يسد اليهم من المعروف أكثر من ذلك

وأما الرفق فهو اللطف وأخذ الأمور بأحسن الوجوه وأيسرها . وضده الخرق - بالضم - مأخوذ من خرق كتعب إذا عمل عملا لم يرفق فيه . ويضاد الرفق أيضا العنف وهو الشدة والمشقة وهل يجوز أن يسمى الله رفيقاً أولا . الصحيح أنه يجوز لأنه ورد فى الأحاديث الصحيحة تسميته بذلك وهو كاف فى صحة التسمية . وقد سأل عمرو بن العاص ابنه عبد الله فقال له ما الرفق قال أن تكون ذا إناة وتلاين الولاة . قال فما الخرق قال معاداة إمامك ومناوأة من يقدر على ضررك . أخرجه ابن أبى الدنيا . وقال سفيان بن عيينة لأصحابه أتدرون ماالرفق قالوا قل ياأبا محمد قال أن تضع الأمور فى مواضعها . الشدة فى موضعها واللين فى موضعه . أخرجه ابن أبى الدنيا وهو وما قبله يوضح لك معنى الرفق فان التأنى فى الأمور وعدم العجلة فيها يفضيان إلى إدراكها على وجه صحيح ومعالجتها بما يناسبها وأخذها بأحسن الوجوه وأيسرها وتصريفها على حسب ماتقتضيه من الشدة واللين فيضع كل شيء موضعه فلا يستهين بمن هو أكبر منه قوة ولا يناوئ من يستطيع

الاضرار به ولا يرضى بالدنيئة من الأمر . فهذا هو الرفق ومنه تعلم أنه لايوجد إلا مع الحلم لأن الثورة وطغيان الغضب لايتأتى معهما تصريف الأمور على هذا الوجه كما سيأتى فى الحلم . ولهذا قيل إن الرفق بنيّ الحلم - تصغير الابن - ثمرته ونتيجته . أخرجه ابن أبى الدنيا . أما الخرق فانه قد يوجد مع عدم الغضب لانه قد يكون مسببا عن البلادة والجهل بعواقب الامور

وإذ قد علمت هذه الصفات فاعلم أنها كلها ممدوحة فى نظر الدين الاسلامى لما يترتب عليها من إسداء الخير الى الناس والعناية بهم لان الدين الاسلامى يرى أن الخير كل الخير فى معاملة الناس بالحسنى وأن الانسان فى هذه الحياة لم يخلق لنفسه فقط بل عليه واجبات وحقوق يؤديها للمجتمع وهذه الحقوق تختلف باختلاف علاقته بغيره شدة وضعفا وقربا وبعداً . وكل ذلك سيأتى بيانه فى الجزء الثانى إن شاء الله على أتم وجه . فلنذكر لك هنا بعض مايترتب على كل صفة منها من الآثار النافعة مع ذكر الاحاديث الصحيحة الدالة على فضلها

آثار الرحمة

فاما الرحمة فانه يترتب عليها من الفوائد النافعة للأفراد والمجتمع مايأتى

أولا : الكف عن الاعتداء على دماء الناس وأموالهم وأعراضهم . لان رحماء القلوب لايؤذون غيرهم واذا وقع من أحدهم مايؤذى قهراً عنه فانه يتالم له كل الالم ولا يستريح الا اذا تحلل ممن لحقه اذاه . فاذا لم يكن فى الرحمة الا هذا لكفى بها فضيلة يتقى بها أشد الاخطار التى يتعرض لها بظلم الناس فى الدنيا والآخرة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله يملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ثم قرأ (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد) » رواه البخارى ومسلم والترمذى . فالظالم لابد أن ياخذه الله بظلمه وينتقم منه وان صبر عليه .

ومعنى قوله تعالى (وكذلك أخذ ربك) اى مثل ذلك الأخذ والاهلاك المتقدم ذكره فى الآيات السابقة لقوم عاد وثمود وآل لوط وغيرهم . (أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة) فان الله تعالى يصبر عليهم ويمدهم فى طغيانهم ثم بعد ذلك ينتقم منهم شر انتقام . فكل فرد أو جماعة يظلمون الناس لابد أن ينتقم الله منهم كما انتقم من هؤلاء الظالمين فى دار الدنيا مهما طال الأمد ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتدرون ما المفلس قالوا المفلس فينا من لادرهم له ولا متاع فقال ان المفلس من امتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة . ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا واكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فان فنيت حسناته قبل ان يقضى ماعليه اخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » رواه مسلم والترمذى . فمن لم يتحلل من حقوق الناس ويرد لهم مظالمهم فى الدنيا كانت حاله فى الآخرة هكذا . ان كانت له حسنات ياخذون منها فان وفت فذاك والا طرح فى النار . وقد ورد فى الحديث

ـ وسفك دم هذا ـ ومعنى سفك الدم اراقته فلا يلزم منه ازهاق الروح اذ قد يريق دمه بشج رأسه أو اتلاف عضو منه اما قتل النفس عمداً فانه لا يبقى معه حسنات فان الله تعالى قال (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه) ولهذا قال بعض أئمة المسلمين ان قاتل النفس بغير حق يخلد فى النار كما يخلد الكافر وسواء كان هذا القول صحيحا أو كان الصحيح أنه لايخلد خلود الكافرين وأن معنى الخلود طول المكث فان قول الله هذا يتجلى فيه غضبه على القاتل ويظهر منه شدة وعيده وتهديده اياه وما كان الله ليقول ذلك لعبا بل لابد من ان يجزى ذلك المجرم الأثيم أسوأ الجزاء ويعاقبه اشد العقاب وكفى به اثما ان يذكر عقابه كعقاب الكافرين ويجعل جزاءه الخلود فى نار السعير وقانا الله السوء بمنه وكرمه

من هذا تعلم ان عاقبة التعدى على الناس وظلمهم شر كبير وبلاء عظيم فى الدنيا والآخرة ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم« من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض او من شيء فليتحلله منه اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح اخذ منه بقدر مظلمته وان لم تكن له حسنات اخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » رواه البخارى والترمذى

فاحسن مايفيد المرء فى ذلك أن يجتهد فى ترضية الناس ويعمل على رد حقوقهم ان استطاع الى ذلك سبيلا فان لم يستطع فعليه أن ينوى سدادها عند القدرة ويطلب منه العفو عما يستحيل عليه الوصول اليه اما التعدى على الأعراض فانه لا يلزم ذكره مفصلا لأنه يؤلم صاحبه وربما زاده حقدا وغضبا فلا يصفح ابدا بل الحق انه يكفى فيه ترضيته من طريق أخرى حتى اذا رضى يطلب منه أن يعفو عنه فيما فرط منه فى حقه مطلقا وسيأتى تتمة الكلام فى مبحث التوبة فى الجزء الثانى

ثانيا . تأدية مافرضه الله على الانسان من زكاة مال او انقاذ نفس معصومة من الهلاك لأن الرحماء لايستطيعون أن يروا بأعينهم ويسمعوا بآذانهم ان اخوانهم فى الانسانية يتضورون جوعا ويمشون عراة وهو متمتع بالمال الزائد عن حاجته وحاجة من يعول

ثالثا . إغاثة الملهوف واعانة المكروب وقضاء حوائج الناس على قدر ما يستطيع لأن رحمته تدفعه الى ذلك وبذلك يكون خيرا وبركة على نفسه وعلى الناس ويكون من العاملين بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « على كل مسلم صدقة قيل ارأيت ان لم يجد قال يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق قال ارأيت ان لم يستطع قال يعين ذا الحاجة الملهوف قال قيل له ارأيت ان لم يستطع قال يأمر بالمعروف أو الخير قال ارأيت ان لم يفعل قال يمسك عن الشر فانها صدقة » رواه البخارى ومسلم . وقوله صلى الله عليه وسلم « لايزال الله فى حاجة العبد ما دام العبد فى حاجة اخيه » رواه الطبرانى

والحديث الاول يفيد ان الانسان مكلف بمعونة غيره اما بالمال او بالعمل او بالقول فان كان له مال فانه يجب عليه ان يخرج منه مافرضه الله عليه فان زاد على ذلك فانه صدقة واحسان يضاعف الله عليه الأجر فان لم يكن له مال فانه لايصح ان يكون عالة على الغير بل عليه ان يكسب المال بعرق جبينه وعمل يده لينتفع هو وينفع غيره بقدر مايتاح له .فان لم يستطع فعليه أن يعين المكروب ويساعده

فى عمله مساعدة بدنية فان لم يستطع فليعمل بلسانه فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فان لم يفعل فليكف الناس شره وهذه اقل المراتب وأدناها

اما الحديث الثانى فانه يدل على مقدار فضل قضاء حاجات الناس والسعى فى مصالحهم فان من يقضى بحاجة اخيه يكون الله له عونا فى حاجته ومن كان الله له عونا فانه لن يشقى ابدا ويحفظ الله عليه نعمه ظاهرة وباطنة . اما اذا ضن على الناس بما أنعم الله عليه من جاه ونعم وبخل عليهم بمعونته فان الله يتخلى عنه وبذلك تتعرض نعمته للزوال كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامن عبد انعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه ثم جعل من حوائج الناس اليه فتبرم فقد عرض تلك النعمة للزوال » رواه الطبرانى باسناد جيد . وقال عليه الصلاة والسلام« من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . ومن يسر على معسر فى الدنيا يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ومن ستر على مسلم فى الدنيا ستر الله عليه فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ماكان العبد فى عون أخيه »رواه مسلم وغيره

فانظر الى ماتضمنته احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحث على معونة الغير فانها صريحة فى ان الانسان لم يخلق لنفسه فقط وأن السعادة فى الدنيا ليست عبارة عن الحصول على اكبر نصيب من شهوتى البطن والفرج وأوفر حظ من المال والبنين والجاه والسلطان من غير مبالاة بما يصيب من حوله من اذى أو يلحقهم من بؤس وشقاء كلا بل السعادة الحقيقية فى دار الدنيا هى ان يتعاون الانسان مع اخوانه فى قطع مراحل الحياة ويمدهم بما اتاه الله من مال أو علم أو جاه أو سلطان وهو مع ذلك لاينسى نصيبه من التمتع بالحلال الطيب من رزق الله ولا يهمل واجبا من واجباته تعالى . هذه هى السعادة التى ينبغى ان يتنافس فيها المتنافسون ويتبارى فى تحصيلها المجتهدون ويتسابق فى ميدانها المتسابقون ومن ظفر بهذا فى دار الدنيا فقد ظفر بالسعادة الكاملة من نعيم خالد مستمر وملك دائم مقيم فى دار الآخرة كما تقدم فى معنى السعادة

رابعا . تبعثه الرحمة الى مواساة جاره فلا يطيب خاطره أن يرى نفسه يمرح فى نعم الله عليه فيأكل انواع الطعام ويشرب لذيذ الشراب ويلبس فاخر الثياب الى غير ذلك من انواع اللذات ثم يرى الى جانبه جاره يذوق مرارة البؤس والشقاء فيبيت يطوى على الجوع وحوله صبية عضهم الشقاء بنابه فلم يذوقوا لنعيم الدنيا طعما ولم يعرفوا له وصفا لاشك أن الرحماء لايصبرون على هذا ولا يستطيعون الاغضاء عنه فيؤدون مافرض الله عليهم نحو جيرانهم البؤساء ويمدون اليهم يد المعونة وذلك من فضائل الأعمال فقد قال رسول الله ﷺ « ليس المؤمن الذى ليشبع وجاره جائع» رواه الطبرانى ورواته ثقات ورواه غيره وقال عليه الصلاة والسلام « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن الى جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الاخر فليقل خيرا أو ليسكت »رواه مسلم . وقال عليه الصلاة والسلام« خير الاصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره» رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ورواه غيره الى غير ذلك من الاحاديث الدالة على ضرورة العناية بالجار كما سيأتى فى الواجبات الدينية

خامسا . تبعثه الرحمة الى مواساة اليتيم وكفالته ومعونة الأرامل والمساكين ومساعدة البؤساء والمضطرين . وذلك من خير أعمال البر وأفضل مايدخره الانسان لينفعه فى دنياه وآخرته فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا . واشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما » رواه البخارى وابو داود والترمذى . ومعناه أن كافل اليتيم له منزلة فى الجنة رفيعة لأنه يكون جار النبي صلى الله عليه وسلم وقريبا منه وفى هذا الحديث اكبر حث على ايواء اليتيم وتربيته حتى لايتعرض فى هذه الحياة لمحن الايام وينشأ عضواً فاسدا فى الهيئة الاجتماعية فمن يوفق الى كفالة يتيم كان له ذلك الأجر العظيم مالم يرتكب من الجرائم ما يحول بينه وبين هذه المنزلة فقد ورد فى حديث آخر صحيح أنه تكون له هذه المنزلة مالم يعمل ذنبا لا يغفر

وبالجملة فصفة الرحمة تدفع الى كل الفضائل الانسانية وتقضى على صاحبها بأن يؤدى للناس مايجب عليهم نحوه وزيادة . ولكن ينبغى أن لا تكون الرحمة سببا فى الخروج عن حدود الدين مثلا الحاكم فانه يجب عليه أن يقتص من الظالم وأن يعاقب المجرم فاذا دفعته رقة القلب الى الاغضاء عن السارق مثلا أو ذهب به الى ترك الزانى فانه يكون مذموما كل الذم بل يكون جاهلا بمعنى الرحمة والشفقة لأنه إذا رحم فردا بترك عقوبته فقد قسا على الجماعة وظلمهم ظلما مبينا لأن الجرائم تفشوا بينهم بكثرة المجرمين الذين لايخافون عقوبة ولا يخشون قصاصا وبذلك تسود الفوضى ويختل النظام وتتعرض الامة بتمامها للفناء ولهذا قال الله تعالى (ولكم فى القصاص حياة ياأولى الالباب) . وقال تعالى (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله)

وكذلك الشاهد الذى تذهب به رحمته الى الشهادة بغير الحق رحمة بمن اذا شهد عليه بالحق يفلس فى تجارته ولا يجد قوت أولاده أو تضيع أرضه التى يعيش منها فان هذا يكون مذموما لان الله تعالى أمر باداء الشهادة على وجهها بقطع النظر عن فقير وغنى لانه هو وحده يتكفل بامر الفقير وهو أولى به لانه إذا فتح باب الزور هدد النظام وضاعت الحقوق وكثرت الجرائم واضطرب أمن الناس وذلك شر عام عظيم لايعادله افلاس فرد أو أفراد . فالرحمة الممدوحة هى التى تكفه عن إيذاء الناس وتدفعه إلى أن يؤدى ما عليه من الحقوق والواجبات سواء كانت لله أو لعباد الله وقد ذكرنا لك أمثلة ذلك . ولهذا حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرحمة ونعى على قساة القلوب فقد قال رسول الله ﷺ « من لايرحم الناس لا يرحمه الله » رواه البخارى ومسلم وغيرهما وقال صلى الله عليه وسلم « من لايرحم من فى الارض لايرحمه من فى السماء » رواه الطبرانى باسناد جيد قوى . وقال عليه الصلاة والسلام « ارحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم » من حديث رواه أحمد باسناد جيد . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت الصادق المصدوق صاحب هذه الحجرة أبا القاسم صلى الله عليه وسلم « يقول لا تنزع الرحمة إلا من شقى » رواه أبو داود وغيره . وعن عائشة رضى الله عنها قالت جاء أعرابى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إنكم تقبلون الصبيان وما نقبلهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك » رواه البخارى ومسلم ومعناه أن النبى ﷺ يوبخه على هذا ويعرض بأن هذه قسوة مذمومة فهو يقول له وماذا أصنع لمثلك الذى نزع الله الرحمة من قلبه . ولقد وصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم

بالرحمة والشفقة على الضعاف من خلق الله ولو كانوا بهائم فقد روى عن معاوية بن قرة عن أبيه رضى الله عنه أن رجلا قال يارسول الله إنى لأرحم الشاة أن أذبحها فقال «إن رحمتها رحمك الله» رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا أضجع شاة وهو يحد شفرته فقال النبى صلى الله عليه وسلم «أتريد أن تميتها موتات هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها» رواه الحاكم وقال صحيح على شرط البخارى. ورواه غيره

وقد وردت أحاديث كثيرة فى هذا المعنى كما وردت أحاديث فى الحث على الرحمة بالخدم وغيرهم فمن ذلك ما رواه مسلم وغيره عن أبى مسعود البدرى رضى الله عنه قال « كنت أضرب غلاما لى بالسوط فسمعت صوتا من خلفى اعلم أبا مسعود فلم أفهم الصوت من الغضب فلما دنا منى إذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو يقول اعلم أبا مسعود أن الله تعالى أقدر عليك منك على هذا الغلام فقلت لا أضرب مملوكا بعده أبداً» وفى رواية «قلت يارسول الله هو حر لوجه الله تعالى فقال أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار»

فانظر الى رحمة رسول الله ﷺ وعطفه على الضعيف وانظر الى طاعة المسلمين له وتأثرهم بأمره ونهيه فان ابا مسعود حينما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم متأثراً من ضرب الرجل ويحذره بطش ربه وقدرته لم يجد وسيلة يكفر بها عن ذلك سوى عتق ذلك المملوك . وامثال هذا كثير سيرد عليك فى الواجبات ان شاء الله

الاحسان

وأما آثار الاحسان فهى الخير الكثير الذى ينفع المحسنين وينفع عباد الله تعالى سواء كان الاحسان بمعنى التفضل والزيادة على الواجب أو كان بمعنى الاتقان أما الأول فظاهر لأن الذى يفعل مايجب عليه لله وللناس ثم يزيد على ذلك فانه يكون ذا فضل عظيم على نفسه وعلى الناس واما الثانى فهو ينقسم الى قسمين القسم الاول إتقان الاعمال المتعلقة بامور الدنيا من صناعة وتجارة وزراعة ونحو ذلك فالصانع اذا أتقن صناعته وأجاد عمله فانه ينفع نفسه وينفع الناس لأن اتقان العمل الصناعى ينتج أجل الفوائد للمجتمع إذ يوفر على الناس كثيراً من أموالهم التى تذهب سدى فى سبيل خلل الاعمال وكذلك يوفر عليهم كثيراً من الوقت الذى يقطعه الجاهل فى معالجة عمله . ويسد عليهم حاجتهم التى يبتغونها من العمل وهو باتقانه يخدم نفسه لأن ثقة الناس به تقوى واقبالهم عليه يزيد فتروج صناعته ويصبح بين الناس ذا سمعة حسنة وهى رأس مال الصانع التى عليها مدار حياته واستمرار عمله . اما الصانع الذى لايجيد صنعته ويهمل فيها فانه بذلك يغش الناس ويظلمهم فى أموالهم ويضيع عليهم وقتهم وربما أضاع عليهم فرصا كثيرة كانوا ينتفعون بها من وراء جودة الصناعة وعدم خللها

وهو بذلك يهدم نفسه ويرفع ثقة الناس به فتكسد صنعته ويعيش بائسا فقيراً . بخلاف التاجر الذى يتقن العمل فى تجارته ويراقب الله تعالى فلا يكذب ولا يغش ولا يبيع للناس الا أجود الأنواع وأحسنها ولا يغبنهم فى البيع فيربح منهم زيادة عن غيره ولا يبيعهم ما يظهر فيه عيب فى المستقبل. ولا يضايقهم فى رغباتهم فانه بذلك يخدم نفسه ويخدم أمته أما التاجر الغاش المهمل الذى يغبن الناس فى بيعه وشرائه فبشره بانصراف الناس عنه وافلاسه فى العاجل القريب

وكذلك الزارع الذى يتقن عمله فانه يخدم أمته باخراج ما ينفعهم ويخدم نفسه بالانتفاع بثمرات زرعه. وهكذا كل من يناط به عمل من أمور الدنيا فانه مكلف باتقانه فى نظر الدين فان أهمل فيه وكان ذلك الاهمال يفضى إلى الاضرار بالناس كان حراما أما إذا لم يضر أحدا فانه لا يعاقب عليه عقاب المجرم ولكنه نقيصة لا يرضا ها الدين لأن كل فرد لا يصح له أن يرضى بنقص فى عمله وهو يستطيع أن يسده ولا يصح له أن يهمل أمراً ينفع غيره الا إذا عجز عنه . يرشد الى ذلك الحديث المتقدم فى مبحث الرحمة من أنه على كل مؤمن صدقة فانه مكلف باسداء الجميل للناس فاذا عجز كف عن عن اساءتهم فالكف عن الاساءة أقل مراتب الانسانية

القسم الثانى . أداء مافرضه الله عليه من حقوقه أو حقوق عباده على الوجه الأكمل فمن أتقن صلاته وصيامه وحجه وأخرج زكاة ماله طبقا لقواعد الدين وأداها خالصة لوجه الله تعالى بدون رياء ولا سمعة وليس له غرض فاسد من ورائها وانما يفعلها امتثالا لأمر ربه وأدى ما فرضه الله عليه من حقوق عباده كبر الوالدين وصلة الارحام والانفاق على الأهل والاقارب ونحو ذلك مما سيأتى فانه بلا شك يكون خيراً وبركة على نفسه وعلى الناس ولهذا فسر رسول الله ﷺ الاحسان بان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ومن يفعل ذلك فقد كف عن ظلم الناس وظلم نفسه وأسدى الجميل الى نفسه والى الناس وكان من الفائزين

الرفق

وأما آثار الرفق فهى تصريف الامور على الوجه الأتم وعدم التعرض للأخطار والصدمات التى قد تودى به وهذا خير عظيم ينفع المرء فى حياته . روى أن عمرو بن العاص كتب الى معاوية كتابا يستعجله أمراً ويحضه على اغتنام الفرصة فكتب له معاوية أما بعد فان التفهم فى الخير زيادة رشد وان الرشيد من رشد عن العجلة وإن الخائب من خاب عن الاناة وان المتثبت مصيب أو كاد يكون مصيبا وإن العجل مخطىء أو كاد يكون مخطئا . وان من لا ينفعه الرفق يضره الخوف . ومن لا تنفعه التجارب لا يدرك المعالى اخرجه ابن ابى الدنيا . فقوله ان التفهم فى الخير أى فهمه شيئا بعد شىء فلا يستعجل فيه فيفهمه بدون تأمل . وقوله زيادة رشد أى زيادة علم فلا يضل الصواب لأن الرشد ضد الغى والضلال فالرشيد هو الذى لا يعجل فى أمره والاناة بالكسر بمعنى التأنى فما لاريب فيه أن الرفق فى الأمور خير وبركة على الفرد والجماعة فان الأخرق يضر بنفسه ويضر بغيره ممن لهم به

علاقة لهذا قال رسول الله ﷺ «إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله» رواه البخارى ومسلم وقال ﷺ «الرفق لا يكون فى شىء الا زانه ولا ينزع من شىء الا شانه» رواه مسلم وقال ﷺ «من أعطى حظه من الرفق فقد اعطى حظه من الخير ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير» رواه الترمذى

واذ قد عرفت أن الرفق يستلزمه الحلم فان الآثار المترتبة على الحلم من خير المجتمع والافراد تترتب على الرفق وسيأتى بيانها مفصلة فى مبحث الحلم

الحلم وكظم الغيظ

الحلم هو ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب . أو احتمال الأعلى الاذى من الادنى وهو يرجع الى الاول لان من احتمل الاذى ممن دونه مع القدرة عليه فقد ضبط نفسه عند الغضب ولا يسمى الانسان حليما الا إذا كان ذلك طبعا له لا تكلف فيه . فاما ضبط النفس عند الغضب مع التكلف فهو تحلم لا حلم وهو يسمى كظم الغيظ . فاذا تكلف الانسان الحلم بأن كظم غيظه مرة بعد أخرى اصبح الحلم عادة له

وأصل الكظم شد رأس القربة عند امتلائها فيقال كظم القربة اذا ملأها وشد رأسها وكظم الباب سده . شبه به من أمسك نفسه عند امتلائها بالغضب فلا ينتقم ممن أهاجه ومنه فلان كظيم بمعنى ممتلى حزنا . والغيظ مرادف للغضب الا أن الغيظ لا ينسب الى الله تعالى بخلاف الغضب . وقيل ان بينهما فرقا وهو أن الغضب يتبعه ارادة الانتقام حتما أما الغيظ فلا . وعلى كل حال فمعنى الكاظمين الغيظ المحتملين الغيظ الذين كفوا انفسهم عن الانتقام مع القدرة عليه

وقد علمت مما تقدم أن ذلك يكون ممدوحا إذا لم يترتب عليه اخلال بالدين والا كان جبنا فمن حلم على من يعتدى على دينه أو عرضه أو ماله ولم يكفه عن ذلك نال منتهى الذم نعم قد علمت انه ينبغى لمن يدافع عن الفضيلة أن يضبط نفسه عند الدفاع فلا يسرف فى الانتقام ولا يتجاوز الحد المشروع لرد المعتدين والا كان متهوراً ظالما فالشجاعة فى نظر الدين تستلزم الحلم لانك قد عرفت ان ليس الشجاعة مجرد القوة التى يستطيع بها المرء مواجهة الاخطار بل لابد معها من ضبط النفس عند الغضب حتى يتمكن من اتباع سنن الدين فى الدفاع على الوجه الذى بيناه لك فيما تقدم

ما يترتب على الحلم من الآثار والمنافع

يترتب على الحلم آثار جليلة . ومنافع عظيمة يعرف الفرد أو الجماعة قدرها . إذا طغى الغضب فأثار النفوس وأسعر نار الفتنة . فاضطربت الأمور واستحكمت العداوة

والبغضاء واستولى على النفوس حب النزاع والصدام وحبب اليها الفتك والتدمير وسهل عليها القضاء على الأنفس والأموال والأعراض وعذب لديها تخريب الديار . والاستهانة بالنظام ونسيت مايجره الطيش والتهور من بلاء دائم وشقاء مستمر . وينتجه من نتائج قد تغير مجرى الحياة فتبدل العز ذلا والسعادة نحسا والربح خسرانا والأمن خوفا والطمأنينة قلقاً وراحة النفس عذابا . عند ذلك يعرف الناس فضل الحلم ويكبرون قدر الحليم . فان الحليم هو الذى يدفع بحلمه كل هذه الشرور لأنه يستطيع أن ينظر إلى كل أمر من الأمور نظراً صادقا ويقدره تقديرا صحيحا ويزنه بميزان عادل فلا يستخفه الغضب والطيش فيدفعه إلى المخاطر ويسوقه الى مالا قبل له به . وربما كان زعيم قوم وقائد جماعة فيعرضهم بطيشه الى الهلكة والدمار . وينقذهم بحلمه من مزالق الفناء ومواطن البوار

فالحلم خير وقاية تقى مصارع السوء وتحفظ من الوقوع فى مواطن الهلاك

ولهذا أمثلة كثيرة بين الجماعة والأفراد . فلنذكر هنا المهم منها ليتضح لك الأمر وتتجلى لك الحقيقة من جميع الجهات .

المثال الأول الحاكم إذا كان حليما لايستفزه الغضب الى ابرام الأمور قبل التثبت منها فانه يكون نعمة وبركة على نفسه وعلى أمته لأن التثبت فى الأمور قبل إبرامها يستلزم العدل واعطاء كل ذى حق حقه وجزاء كل فرد بما هو أهله . وبذلك تسعد أمته وتدوم دولته وترتفع مكانته عند الله وعند عباده . فيرضى عنه ربه فيستجيب له إذا دعا ويهيئ له وسائل النصر والظفر على الأعداء ويديم عليه نعمه فى الدنيا والآخرة كما قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لاترد دعوتهم . الصائم حتى يفطر . والامام العادل ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين » رواه أحمد والترمذى وغيرهما . وقال عليه الصلاة والسلام « عبادة يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة » من حديث رواه الطبرانى باسناد حسن . إلى غير ذلك من الأحاديث الكريمة الدالة على فضل الحاكم العادل وما له من المنزلة عند الله تعالى وعلى العكس من ذلك الحاكم الجائر الذى يستفزه الغضب فيحمله على الانتقام من الضعفاء وظلم الأبرياء من غير تثبت ولا دليل . ويكفى مثل هذا تخويفا وتحذيراً قول رسول الله ﷺ « إن دعوة المظلوم لاترد وإن الله تعالى يرفعها فوق السحاب ولا بد أن ينصره ولو بعد حين » فالمظلوم يغضب الله من أجله ويستجيب له دعوته وينتقم له ممن ظلمه فى الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . وقد تقدم تفصيل ذلك فى مبحث العدل

المثال الثانى . زعماء القبائل والعشائر ورؤساء الأسر إذا كانوا حلماء فانهم يرفعون عن أتباعهم كثيرا من الأذى ويدفعون عنهم شر التنازع والخصومات مع بعضهم بعضا أو مع غيرهم . فان الحليم يمكنه أن يعالج الأمور بالهدوء ويفكر فى الوسائل التى تزيل الضغائن والأحقاد . فيقبض على ناصية الأمور ويصرفها بالحكمة وبذلك يستميل اليه الخصوم ويثنيهم عن الشر ويأخذ منهم بحلمه ولينه مالم يستطع أخذه بجاهه وقوته فتحسم مادة الشر ويحل الوئام محل الخصام . ومثل هؤلاء الزعماء القضاة اذا اتصفوا بالحلم . فان القاضى الحليم يستطيع أن يهتدى الى الصواب ويعرف الحق الذى ينشده . لأن سعة صدره لاستماع كل مايذكره الخصوم وحلمه عليهم حتى يدلوا اليه بكل حججهم ويبينوا له كل

مايستطيعون من طرق الاثبات . لهى من خير الوسائل التى تفيده فى استنباط الحق ومعرفة الزائف من الصحيح . أما اذا كان سريع الغضب لايصبر على سماع حجة ولا يطيق مناقشة دليل فان خطأه يكون أكثر من صوابه وضرره يكون أكثر من نفعه

المثال الثالث . المربى اذا كان حليما فانه ينتج أحسن النتائج ويؤدى لأمته أجل الخدم وأفضلها لأنه يستطيع بحلمه أن يتبين مواضع الضعف من نفس القائم على تربيته فيعالجه بما يناسب حاله حتى يشب صالحا نافعا خصوصا اذا كان قائما بتلقينه العلم فان ملقن العلم اذا لم يكن حليما فانه يضيع على من يعلمه أحسن الفرص فى حياته لأنه يحرمه من مناقشة الحقائق العلمية التى يتمكن بها من معرفة الخطأ من الصواب والحق من الباطل ويتدرب بها على المناظرة المفيدة للفكر فضلا عما تتركه حماقة المربى من الأثر السيء فى نفس الطالب . فان عدواها تسرى اليـــه من استاذه ويكون شراً على نفسه وعلى الناس .

المثال الرابع . الزوج مع زوجه . اذا كان كل منهما حليما فانهما يعيشان عيشة راضية مرضية اذ يغضى كل منهما عن هفوات صاحبه فلا يثيران نزاعاً لأيسر الأمور وأحقر الأسباب خصوصا اذا كان لهما أبناء تتطبع فيهم أخلاقهما وتنقل اليهم صفاتهما فان فضل الحلم فى هذه الحالة عظيم وضرر الحماقة شديد لما يصيب الأبناء من نفع الاول وضرر الثانى . فالحلم فى الحياة الزوجية سعادة عاجلة وآجلة وخير عظيم للأسرة بتمامها .

المثال الخامس . التاجر اذا كان حليما . فان تجارته تكون رائجة . واقبال الناس عليه يكون كثيرا . لان حلمه يرغبهم فى معاملته . أما اذا كان أحمق يثور غضبه لاهون الاسباب وأيسر الامور فيؤذى بلسانه من لم يسوّم سلعته بالثمن الذى يحب أو يمنع عنه السلعة . فلا يمكنه من اعادة النظر اليها أو يحلف الأيمان بأنه لايبيعها منه . الى غير ذلك مما يفعله كثير من الباعة حماقة وجهلا فانه من أكبر الأسباب فى كساد تجارتهم لانصراف الناس عنهم ونفرتهم من معاملتهم وقد يفضلون معاملة الحليم حتى ولو كانت سلعته أقل جودة من سلعة ذلك الأحمق . فكما أن الصدق من وسائل نجاح التاجر فكذلك الحلم . ومثل التاجر الصانع . فان الصانع الأحمق تنفض القلوب من حوله ويأبى الناس معاملته خوفا من شره فلا يعامله أحد ويظل فقيرا بائسا . أما الحليم فانه يكون محببا للنفوس يستريح معه الناس فتروج صنعته ويعيش بها سعيدا . فكما أن الكذب سبب فى بوار الصانع وعطلته فكذلك الحماقة والغضب

فالحلم نافع للأفراد والمجموع والرئيس والمرءوس والتاجر والصانع والزارع ومفيد للناس أجمعين بشرط أن يستعمل فى موضعه كما ذكرنا آنفاً

﴿ وبعد ﴾ فلنذكر هنا أمثلة من حلم رسول الله ﷺ ليقتدى به المسلمون . ويهتدى بهديه المسترشدون فانه عليه الصلاة والسلام أحسن الناس أخلاقا وأكثرهم حلما كما وصفه الله تعالى بقوله (وإنك لعلى خلق عظيم) فمن ذلك مارواه جابر رضى الله عنه أنه ﷺ « كان يقبض للناس يوم حنين من فضة فى ثوب بلال فقال رجل يانبى الله اعدل فقال رسول الله ﷺ ويحك فمن يعدل اذا لم أعدل فقد خبت اذاً وخسرت إن كنت لاأعدل فقام عمر فقال ألا أضرب عنقه فانه منافق فقال معاذ الله

أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى » رواه مسلم . وكان رسول الله ﷺ فى حرب « فاستظل تحت شجرة بعيداً عن أصحابه وقد علق سيفه بتلك الشجرة . فجاء رجل مشرك فأخذ سيف رسول الله المعلق ووقف على رأسه وفى يده السيف ثم قال للنبى ما يمنعك منى فقال ﷺ الله عزوجل يمنعنى منك فدهش الرجل فى نفسه وسقط السيف من يده فأخذ رسول الله السيف من الأرض وقال من يمنعك الآن فقال الرجل كن خير آخذ قال قل أشهد أن لا إله إلا الله فقال لا غير أنى لا أقاتلك ولا أكون معك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلى سبيله فجاء الى قومه فقال جئتكم من عند خير الناس » ومعنى هذا الحديث متفق عليه

وروى ابن القيم أن رسول الله ﷺ « كان يقسم تمراً فى عرجونه فى يوم شديد الحر فهجم عليه أعرابى فضايقه فضربه رسول الله بعرجونة فقال له الرجل أتضربنى يارسول الله فقال له خذ فاقتص فقال له بل عفوت يارسول الله »

وروى أيضا أن معاذاً شبح رأس رجل فطالب قومه بالقصاص فرضاهم رسول الله ﷺ بمال حتى يعفوا فرضوا به فقال لهم عليه الصلاة والسلام انى سأعلن ذلك فى ملا من الناس فقالوا نعم فذكره صلى الله عليه وسلم فى اجتماع ثم قال لهم هل رضيتم فقالوا لا . فلم يغضب عليهم واختلى بهم مرة أخرى وزاد لهم فى المال حتى رضوا فقال لهم انى سأذكر ذلك فى جمع فقالوا نعم ففعل ثم قال لهم هل رضيتم قالوا رضينا » فاذا تأملت فيما ذكرنا من تلك الامثلة ترى أن رسول الله ﷺ كان يصفح عن كل ماليس له مساس بالدين ويعفو حيث يكون للعفو أثر صالح وينسى نفسه الكريمة عند الحق والعدل . فانظر الى عفوه عن الرجل الذى أراد قتله فانه لفت بعفوه نظر الرجل الى مكارم أخلاقه ﷺ . وذهب الى قومه فقال لهم جئتكم من عند خير الناس وفى ذلك من توجيههم الى النظر فى تعاليمه والبحث فيما جاءهم به من عند ربه ماقد ينتج اسلامهم وهدايتهم وتلك هى النتيجة التى يسعى اليها رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام . وكذلك عفوه عن الرجل الذى قال له اعدل يارسول الله فانه عله ﷺ بقوله انه اذا اقتص منه كما قال عمر يقول الناس ان محمداً يقتل أصحابه وذلك خطر شديد على الدعوة الى الله لأن الناس ينفرون عنه ويخشون الاجتماع عليه . وهذا هو الذى بيناه لك من أن الحليم الذى لايستفزه الغضب يستطيع أن يتدبر فى عاقبة الأمور وينظر الى ماعساه أن يقع ولو تقديراً فيحكم حكما لايكون وراءه ندم على أى حال . وكذلك حلمه مع الاعرابى الذى قال له أتضربنى يارسول الله فانه ﷺ لم يتماد فى غضبه ولم يستنكر من الاعرابى استفهامه الذى فيه مطالبة بحقه فقضى عليه حلمه أن يخضع للحق وأن يقول للأعرابى خذ العرجون واقتص منى . ألا ان فى ذلك لابلغ العظات وأجل المثل

فهذا رسول الله ﷺ يقتص من نفسه لانه لطم أعرابياً ضايقه بعرجون مع أنه أرفع قدراً من الملوك وأعلا منزلة من القياصرة . ولقد كان يقول له قومه لو أمرتنا أن نخوض بحراً لخاض واحد منا وكانوا يبايعونه على الموت فهل من مدكر . على أن فى هذا الموقف عظة أخرى ينتجها الحلم وهى المحافظة على الحقوق العامة . والتمسك بالنظم فهو ﷺ يرشد بذلك أمته الى أن الناس سواسية بالنسبة للنظام فلا فرق بين كبير وصغير وعظيم وحقير فليس لواحد مهما علا قدره أن يعتدى على

غيره ويفلت من العقاب الذى سنه الله لذلك . ولقد بلغ من حلمه ﷺ أنه لم يضرب قط امرأة ولا خادما كما ورد فى حديث متفق عليه . وقيل له وهو فى القتال لو لعنتهم يارسول الله « فقال انما بعثت رحمة ولم أبعث لعاناً » رواه مسلم . وروى الشيخان من حديث أبى هريرة « قالوا يارسول الله ان دوساً قد كفرت فادع عليها فقيل هلكت دوس فقال اللهم اهد دوساً وأت بهم » ولما آذاه المشركون يوم أحد وكسروا رباعيته وشجوا وجهه وشق ذلك على أصحابه فقالوا لو دعوت عليهم « فقال انى لم أبعث لعانا ولكن بعثت داعياً ورحمة اللهم اغفر لقومى أو اهد قومى فانهم لايعلمون » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم أنا بشر فأيما مسلم سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها منى صلاة عليه وقربة تقربه بها اليك يوم القيامة » رواه مسلم ومعنى هذا الحديث متفق عليه . وقال عبد الله بن عمرو ابن العاص لرسول الله ﷺ أكتب عنك كل ماقلت فى الغضب والرضا فقال « اكتب فوالذى بعثنى بالحق مايخرج منه الا حق وأشار الى لسانه » رواه أبو داود باسناد صحيح . وفى الحديث الذى قبله نهاية الحذر والاحتراس منه ﷺ فانه يخشى أن تتغلب عليه الطبيعة البشرية مرة فتخرجه عن حالته المعهودة من الحلم فيشتم أحداً شتمة أو يضربه ضربة فطلب من الله تعالى أن يجعلها قربة لمن حصلت له والواقع أنه ﷺ لم يضرب أحداً بيده قط الا أن يجاهد فى سبيل الله وما لعن مسلما بصريح اسمه أبداً . روى الحاكم مالعن رسول الله ﷺ مسلماً بذكر اسمه وما ضرب بيده شيئا قط الا أن يضرب فى سبيل الله ولا سئل شيئاً قط فمنعه الا أن يسأل مأثما ولا انتقم لنفسه من شىء الا أن تنتهك حرمات الله تعالى فيكون لله فينتقم .

ومن أجل ذلك أمر عليه الصلاة والسلام عبد الله بن عمرو أن يكتب عنه مايقول فى حال الغضب والرضى لانه معصوم عن الزلل واثق من أن الغضب لايخرجه عن طوره ولا يصرفه عن قول الحق على اى حال .

وقال على كرم الله وجهه كان ﷺ لايغضب للدنيا فاذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شىء حتى ينتصر له » . رواه الترمذى

فهذه أمثلة من حلمه ﷺ وترى من حديث على كرم الله وجهه انه ﷺ كان يحلم حيث يكون للحلم موضع . اما اذا جحد الحق جاحد او خرج عن دين الله فاجر او اعتدى عليه معتد فانه كان عند ذلك يغضب حتى يقوم الحق وتنتصر الفضيلة وتنهزم الرذيلة . وهذا هو معنى الشجاعة التى ذكرناه لك فيما مضى

ولاغرو فانه صلى الله عليه وسلم كان اجمع الناس واحلم الناس فمن تمسك بسنته فقد اهتدى ومن حاد عنها فقد ضل سواء السبيل وكذلك كان حال اصحابه رضى الله عنهم فانهم تخلقوا باخلاقه الكريمة ولم يحيدوا عن طريقه القويم فيدشعرة فنصرهم الله على أعدائهم وأعزهم واعلا قدرهم

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قدم عيينة بن حصن فنزل على الحر بن قيس وكان ممن يدنيهم عمر وكان القراء اصحاب مجلس عمر فقال عيينة لابن أخيه الحر يابن اخى هل لك وجه عند هذا الامير تستأذن عليه فاذن له عمر فدخل فقال يابن الخطاب ماتعطينا الجزل وما تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر

حتى هم به فقال الحر يا امير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه (خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وان هذا من الجاهلين . قال فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وقال له صدقت فكأنما كانت نارا فانطفأت . وكان عمر وقافا عند كتاب الله رواه البخارى

وانا نقف مع القارىء عند هذا الحد لاننا لو شئنا أن نتتبع ما كان عليه كرام المسلمين من الحلم لضاق بنا المقام وحبذا لو فهم المسلمون ذلك وعملوا به ليعيشوا مثلهم كراما فى الدنيا ويكونوا بررة عند الله يوم يبعثون

التواضع

التواضع يقابل الكبر وهو انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة للخلق وانما ينشأ ذلك من معرفة الانسان قدر نفسه وقدر ربه لان من يدرك أنه شخص ضعيف فان وأن كل صفة من الصفات الموجبة للرفعة والكبر فى هذه الحياة لاثبات لها بل هى أعراض زائلة متنقلة ويدرك أن ربه هو الخالق العظيم المنفرد بالبقاء والكبر وأنه سبحانه سيجزى الذين اساؤا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى فان قلبه دائما يكون منكسرا لربه فلا يتمرد عليه باقتراف الجرائم والآثام وعند ذلك يعامل الناس بالرفق والرحمة ولين الجانب فلا يتكبر على أحد ولا يزهو على مخلوق ولا يبالى بمظاهر العظمة الكاذبة فلا يحقد على من لم يقف اجلالا له ولا يعتدى على من يتصدر فى مجلس هو فيه وإن كان دونه منزلة ولا يستنكف من مجالسة الفقراء ومخاطبتهم بطيب الكلام ولا يأنف من أن يستمع نصيحة ممن هو دونه ولا يحتقر احدا من خلق الله الى غير ذلك مما بيناه لك فى مبحث الكبر

وبذلك تعرف الفرق بين التواضع والضعة فان الضعة هى الدناءة والخسة وابتذال النفس فى سبيل شهواتها الفاسدة فيقف المرء فى مواقف تذرى به من أجل الحصول على منصب أو مال أو جاه أو امرأة أو غير ذلك فلا يبالى أن يذل لمن هو دونه أو يتملق لمن يهينه أو يقف على باب من يستثقله ويظهر الاشمئزاز منه وهو لا يبالى بالالحاف عليه والوقوف بين يديه ذليلا خاضعا . والتواضع من صفات النفس الممدوحة والضعة من صفات النفس المذمومة ولقد ذكرنا لك فى مبحث الكبر أن ليس من الكبر معرفة الانسان قدر نفسه والترفع بها عما يذرى والضابط فى ذلك أن كل ما يترتب عليه مصلحة للافراد والجماعات فهو حسن ممدوح وما يترتب عليه ضرر وشر فهو سيء مذموم كما تقدم غير مرة

وللتواضع بالمعنى الذى ذكرنا فوائد كثيرة ومنافع جزيلة تعود على الافراد والجماعات بالخير الكثير فان المتواضع محبب الى النفوس قريب من الناس وكلما دنا منهم ارتفعت منزلته عندهم وعظم قدره فى أنفسهم واستفاد منهم وأفادهم وكلما كان المتواضع عظيما كان تواضعه اكبر أثرا وأكثر فائدة لان الاشياء تعظم بنسبة من تسند اليه كما ذكرنا غير مرة . ولنورد لك بعض امثلة على ما ذكرنا

المثال الأول . إذا كان المتواضع عالما فانه بالتواضع يزداد علما لانه لايستنكف أن يأخذ الفائدة ممن دونه . ولا يأبى أن ينقل الحق عن أى مخلوق أما المتكبر فهو كالمغرور فانه كثيراً مايفوته الحقائق العلمية لأنه يأبى أن يأخذ الحق حيث كان . ولذا قيل ضاع العلم بين الحياء والكبر وكذلك إن كان متعلما فانه بالتواضع يجد عطفا من معلمه فلا يضن عليه بمجهود ولا يبخل عليه بفائدة لأن التواضع يستلزم الأدب . وما أحسن الأدب من المتعلم مع أستاذه الذى يعصر مخه فى سبيل تثقيفه وتهذيبه فانه بالتواضع له والتأدب معه يبرهن على أنه يعرف قدر العلم ويدرك قيمة المعروف وأنه ممن يجزى الاحسان بالاحسان . أما المتكبر الذى يرم أنفه على من يعلمه أنفة واستكباراً ويحمله الكبر على سوء الأدب مع أستاذه فهو غبى جاهل لايعرف للعلم قيمة ولا يريد أن يخرج من جهله وذلك مشاهد بين المتعلمين . فانك ترى المتكبرين على أساتذتهم لاينفكون عن الجهالة ولا يخرجون عن السخف فضلا عما يتصفون به من نكران الجميل وجحد المعروف

المثال الثانى . إذا كان المتواضع ذا مال فانه بمخالطة الناس وعدم الترفع عليهم يعرف البؤساء والمحتاجين ويرى بعينى رأسه مايصيبهم من الشقاء ويمسهم من الجوع والعرى . وما يؤذيهم من ألم الحر والبرد فتألم نفسه لما يصيبهم فيسهل عليه أداء مافرضه الله عليه للسائل والمحروم ويهون عليه أن ينقذ المكروب ويغيث الملهوف . وفى ذلك فائدة له وللناس لأنه بعمله هذا يرضى عنه ربه وخالقه ورضاء الله خير ذخيرة يذخرها الانسان تنفعه فى الدنيا والآخرة لأن من يرضى عنه مولاه العزيز الحكيم لن يصيبه ضيم ولن يمسه شقاء فضلا عما يكسبه من قلوب الناس ومحبتهم إياه واحترامهم له وإخلاصهم فى خدمته . وتضافرهم على الدفاع عنه والانتصار له . وبعد هذا كله فانه يستريح من سفاسف الأمور التى يتألم لها المتكبرون وتغلى من أجلها دماؤهم ويطفى غضبهم فيحملهم على العدوان على عباد الله لأن المتواضع لايعنى بمظاهر العظمة الكاذبة التى ذكرناها آنفاً

المثال الثالث . إذا كان المتواضع ذا جاه فان التواضع يجعل لجاهه معناه . لأن الجاه إن لم يستعمل فى فائدة الجماعة والأفراد فلا يكون له معنى ومن ترفع عن الناس ولم يتواضع لهم فانه لايدنو منه أحد ولا ينتفع بجاهه محتاج فيظل جاهه قاصراً عليه ويصبح اسما بدون مسمى ومن يظن أنه متى حصل على مايسد شهوته وحده من مال أو جاه أوسلطان فقد ظفر بلذات الدنيا ونعيمها فلا يبالى بعد ذلك بغيره شقى أم سعد فهو تعس لأن الانسان لايستقل فى هذه الحياة بل لابد له من التعاون مع غيره وقد فرض الله عليه أموراً كثيرة يؤديها لأهله وأقربائه وجيرانه وأهل مدينته والبيئة التى هو فيها كما فرض عليه إغاثة الملهوف وانقاذ الأنفس من الهلكة عند القدرة وعمل مافيه الخير للناس ومن تأخر عن ذلك فهو آثم مجرم كما سيأتى فى الواجبات الدينية فى الجزء الثانى إن شاء الله .

وما أحسن التواضع من ذى الجاه فانه يعظم فى أعين الناس جد العظمة . ويرتفع قدره كل الارتفاع ويكون كمن قيل فيه

دنوت تواضعاً ورفعت قدراً * فشأناك انخفاض وارتفاع
كذاك الشمس تعلو إذ تبارى * ويدنو الضوء منها والشعاع

أما ذو السلطان فان تواضعه يجب أن يكون مقترنا بالحيطة فلا يفعل ماقد يطمع فيه المحكومين أو يسهل عليهم مخالفة النظام . وذلك يرجع للبيآت التي يعيش فيها فان كانت تدرك معنى الواجب وتعرف معنى النظام فان الحاكم يكون فى خارج الحكم كغيره كما كان فى صدر الاسلام فان المسلمين يومئذ كان الواحد منهم إذا اقترف جريمة ينمّ عن نفسه ويطلب أن يقتص منه ولو كان الجزاء يفضى به إلى الاعدام كما حصل من ماعز الذى ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال إنى زنيت وطلب أن يعدم . ففى مثل هذه البيئة التى تحافظ على القانون من تلقاء نفسها لا يصح للحاكم أن يحتجب عن أفرادها او يترفع عن مخالطتهم . أما إذا كانت البيئة لاتعرف للنظام قيمة ويرى الواحد منهم أن قرب الحاكم منه فرصة للخروج على النظام وربما اتخذ ذلك ذريعة يوهم بها غيره إلى أنه قادر على رفع العقاب عن الجانى والحكم على البرىء . فيسلب الناس أموالهم كرشوة على هذا الحساب . فان الحاكم يجب عليه أن يحتاط إلى هذه الحالة كل الاحتياط كما قدمنا فى مبحث الكبر ويكون معنى تواضع الحاكم حينئذ لين جانبه والاصغاء لحجج الخصوم ومخاطبة الناس بالأدب وعدم الغرور بمنصبه الذى لابد أن يزول وإقامة العدل بين الناس فيسوى بين الصغير والكبير فى الحقوق ومن يفعل ذلك فله أحسن الجزاء عند الله كما تقدم . من أجل ذلك كله حثت الشريعة الاسلامية على التواضع وأمرت به فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مازاد الله عبداً يعفو إلا عزاً . وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » رواه مسلم . وقال صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن تواضع فى غير مسكنة . وأنفق مالا جمعه فى غير معصية . ورحم أهل الذل والمسكنة . وخالط أهل العفة والحكمة » رواه البخارى فى التاريخ ورواه غيره

وفى الحديث إشارة إلى أن التواضع الممدوح هو غير الضعة التى ذكرناها وهى أن يقف موقفاً يذرى به

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى فى التواضع ومكارم الأخلاق . فقد روى الحاكم بسند صحيح « أنه أتى للنبي صلى الله عليه وسلم برجل فأرعد من هيبته فقال هوّن عليك فلست بملك انما أنا ابن امرأة من قريش تأكل من القديد » والقديد اللحم اليابس لأن قريشا كانت تجفف اللحم وتخزنه لوقت الحاجة . وقال ابن عامر « رأيته صلى الله عليه وسلم يرمى الجمرة على ناقة صهباء لاطرد ولا ضرب ولا اليك اليك » رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه وهو حسن صحيح . ومعناه أنه صلى الله عليه وسلم مع كونه سيد العالمين وإمامهم الاعظم كان يرمى جمرة العقبة كآحاد الناس فلا يخلون له الطريق . ولا يطردون الناس ولا يضربونهم ولا يقولون لهم تنحوا إلى جهة وذلك بالنسبة له عليه الصلاة والسلام أكبر تواضع . وروى أبو داود والنسائى أنه صلى الله عليه وسلم « كان يجلس بين أصحابه مختلطاً بهم كأنه أحدهم فيأتى الغريب فلا يدرى أيهم هو حتى يسأل عنه حتى طلبوا اليه أن يجلس مجلساً يعرفه الغريب فبنوا له دكانا من طين فكان يجلس عليه » والدكان كما يطلق على الحانوت يطلق على الدكة التى يجلس عليها — المصطبة —

فذلك مثل من تواضعه صلى الله عليه وسلم . فعلى المسلمين أن يقتدوا بنبيهم عليه الصلاة والسلام ليسعدوا فى الدنيا والآخرة ويكونوا من الفائزين .

الحياء والعفة

الحياء هو انقباض النفس عن القبائح وهو صفة من صفات النفس الممدوحة لأن اشمئزاز النفس عن القبائح يستلزم تركها والانصراف عنها . فالحياء بهذا المعنى من أفضل صفات النفس وأجلها قدراً . وهو مركب من أمرين . الجبن . والعفة . لأن الانقباض عن الشيء يقتضى الاحجام عن فعله كما علمت وذلك أثر الجبن . وترك القبيح أثر العفة . فالحياء الممدوح هو ماتركب منهما معا . أما انقباض النفس عن الفضائل فانه لايسمى حياء بل هو الجبن . فاذا كان المرء مع أحد العظماء الذين يتركون الصلاة ويأتون المنكر فانقبضت نفسه عن فعل الخير وانبسطت لفعل الشر مجاراة لذلك العظيم كان فعله ذلك جبناً لاحياء . ومثل ذلك مايفعله بعض الناس من مجاملة بعضهم بسماع الغيبة ونحوها فانه جبن مذموم كل الذم . والحياء يستلزم الخجل وليس هو الخجل لأن الخجل حيرة النفس وارتباكها من فرط الحياء

وأما العفة فهى التوسط بين طرفى الافراط والتفريط فى الشهوة والغضب على الوجه الذى بيناه فيها فهى مساوية العدل لأن من توسط فى شهوته وغضبه كان مؤديا لما يجب عليه من الحقوق لنفسه وغيره سواء كانت متعلقة بحقوق الله أو حقوق عباده وذلك معنى العدل . وبديهى أن العفة تستلزم الكف عن القبائح أما التلذذ بالمباح فقد ذكرنا لك حكمه فى مبحث الاقتصاد ومبحث شهوة الفرج وغيرهما وقلنا لك ان العفة لاتستلزم ترك التمتع بنعم الله وطيبات رزقه لان الله خلقها للناس ليستمتعوا بها ويذكروا نعمة الله عليهم فاذا وجد مايقتضى هجر اللذات المباحة كما اذا راض نفسه ليصل الى ادراك حقيقة من الحقائق أو يكون قدوة للبؤساء الذين حرموا من لذات الدنيا أو يكون مثالا لقومه فى الاقتصاد أو نحو ذلك فانه إنما يريد بذلك لذة أرقى وتمتعا أكبر لان استمتاع النفس بهذه الامور المعنوية الباقية أكبر وأعلى من استمتاعها باللذات الحسة المنقضية كما بيناه لك فى أول هذا الباب . أما هجر اللذات المباحة وترك التمتع بالطيبات من الرزق لالغرض سوى أنه يريد به الرهبنة فانه لايجوز فى نظر الاسلام لان الله أمر الناس أن يأكلوا من طيبات رزقه قال تعالى (ياأيها الناس كلوا مما فى الارض حلالا طيبا) فقد أمر الله تعالى باكل الحلال الطيب نعم اذا كان الاستمتاع يفضى إلى الترف والاسواف كما بينا فى موضعه فانه يكون مذموما .

أنواع الحياء

ينقسم الحياء الى قسمين . حياء من الله . وحياء من الناس وهو بقسميه رأس الفضائل وأساس مكارم الاخلاق لانه يترتب عليه مايترتب على العدل والعفة ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحياء خير كله » رواه مسلم وقال صلى الله عليه وسلم « الحياء من الايمان والايمان فى الجنة . والبذاء من الجفاء والجفاء فى النار » رواه أحمد وغيره . وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل الحياء من الدين فقال بل هو الدين كله » من حديث رواه الطبرانى وغيره . وقال صلى الله عليه وسلم « الحياء شعبة من الايمان » من حديث رواه البخارى ومسلم . وقال صلى الله عليه وسلم « الحياء والايمان قرناء جميعاً فاذا رفع أحدهما رفع الآخر » رواه الحاكم وغيره

هذا بعض ماقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحياء وهو كما ترى يتضمن وعد من اتصف بالحياء بالجنة ووعيد من اتصف بضده من البذاء والفحة بالنار فقد أخبر صلى الله عليه وسلم أن الحياء خير كله وأنه قرن الايمان فاذا رفع الحياء رفع الايمان ثم قال ان الايمان — أى أهل الايمان — فى الجنة . وأن البذاء من الجفاء وأهل الجفاء فى النار . ولا ريب فى أن ذلك من أجل الحكم وأفضل الموعظة فما من أحد يستمسك به ولا يحيد عنه الا عاش فى دنياه عيشة راضية مرضية وظفر فى آخرته بالسعادة الدائمة والملك المقيم .

آثار الحياء

قد علمت أن الحياء ينقسم الى قسمين حياء من الله وحياء من الناس فاما الحياء من الله فانه يترتب عليه كل الفضائل التى يسعد بها الناس فى دنياهم وآخرتهم فان الذى يستحي من الله لايفعل منكراً ولا يترك واجبا مادام يؤمن بأن الله مطلع عليه لا تخفى عليه خافية من أمره وأنه لابد أن يجزى المحسن باحسانه والمسيء باساءته وأنه سبحانه هو الذى خلقه فسواه وأمده بنعمه وفضله على كثير ممن خلق وأنه مدين له سبحانه فى وجوده وبقائه وفنائه وبعثه وأنه محتاج اليه فى جميع حركاته وسكناته وأنه اذا تأمل فى نفسه وأدرك ماانطوت عليه من دقيق الصنع وبديع التركيب وعلم أنه لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فلا بد من أن يستحي من عصيان ذلك الخالق ولا بد أن يفعل ماأمره الله به وينتهى عما نهاه عنه وذلك هو الخير كله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا ظاهر لان الذى يطيع الله فيما أمر لايظلم أحداً من عباده ولا ينقص أحدا منهم حقه فيوقر الكبير ويرحم الصغير وينزل كل واحد

منزلته ولا يترك مايجب عليه نحو أحد . ولا يهمل حقا من حقوق ربه ومن يفعل ذلك فهو ذوفضل عظيم وخير كثير على نفسه وعلى غيره يعيش فى هذه الحياة عيشة راضية مرضية ويحيا حياة هنيئة طيبة فى الدنيا والآخرة وذلك هو الفوز العظيم

وأما الحياء من الناس فهو قسمان ايضا . الاول أن يستحيي المرء من الناس وهو جازم بانه لايأتى هذا المنكر ولا يفعل هذه الرذيلة خوفا من الله تعالى وحياء منه أيضا ولولم يطلع عليه أحد من خلقه وهذا هو الحازم الذى عرف كيف يستفيد من صفة الحياء ويأخذ أجرها كاملا لأن الحياء انما يمدح من جميع جهاته إذا ترتب عليه الكف عن القبائح التى لايرضاها الدين فى جميع الاحوال . الثانى أن يترك القبيح حياء من الناس بحيث لولم يطلع عليه أحد لفعله وهذا وان كان لم ياخذ أجره كاملا ولكنه يرجى منه الخير وينجح فيه العلاج لأنه مادام الحياء موجوداً فى نفسه وما دام لا يفعل القبائح بين الناس فانه يسهل تذكيره بعظمة ربه وجلاله إن كان مؤمنا وتعليمه ان الله أولى وأحق بأن يستحى منه لأنه هو القادر الذى بيده ملكوت كل شيء وهو بكل شيء عليم فليس من الحزم أن يستحى الانسان من الناس ولا يستحى من ربه . وليس من العقل أن يضيع ثواب ترك القبيح بانصرافه عن ملاحظة خالقه ومراقبة ربه

أما الذى يجاهر بالعصيان ولا يستحى من الله ولا من الناس فهو من شر ما منيت به الفضيلة لأن المعاصى داء سريع الانتقال لاتلبث عدواه أن تسرى الى النفوس الضعيفة فيعم شرها ويتفاقم خطبها فضلا عما فى المجاهرة من انتهاك حرمة الفضيلة والقضاء عليها فشره على نفسه وعلى الناس عظيم وخطره على الفضائل كبير فيجب على جماعة المسلمين أن لا يتركوا أولئك الذين يجاهرون بارتكاب الموبقات يعيشون بينهم بل يجب على كل واحد أن يبذل مجهودا فى ردهم عن غيهم بكل ما يستطيع من نصيحة وغيرها . وخير علاج للقضاء على هؤلاء مقاطعتهم وعدم مخالطتهم واحتقارهم فى مجالسهم والانصراف عن حديثهم حتى يرجعوا عن غيهم ويكفوا عن المجاهرة بجرائمهم . ومن الأسف أن المجاهرة بالعصيان قد فشت فى زماننا بدون حياء من الله ولا من الناس وأصبح الناس على الشهوات الفاسدة واللذات المحرمة شائعا والتسابق فى ميدان القبائح شاملا فلا شاب ينزجر ولا شيخ يرعوى ولا رجل تدركه العبرة . ولا امرأة يغلب عليها الحياء وذلك آية فناء الأمم وهزيمتها فى كل شأن من شؤونها فانما الأمم تحيا حياة طيبة بالتمسك بالفضائل وتعيش عيشة سعيدة باجتناب الرذائل فاذا انتهكت المحارم وغلبت الشهوات وضاع الحياء فماذا يرتجى بعد ذلك من عيش وراءه سخط الله وعقابه ومقته وعذابه ألا إن ذلك هو الهلاك والخسران كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل إذا أراد أن يهلك عبداً نزع منه الحياء » من حديث رواه ابن ماجه

فها أنت ذا ترى النساء خرجن عن كل معنى يطلبه الحياء فيخرجن فى كثير من المدن عاريات الصدور كاشفات الاذرع يعرضن زينتهن التى لا يحل الاطلاع عليها الا لمحارمهن الذين ذكرهم الله على كل غاد ورائح ولا يبالين أن يختلطن بالرجال اختلاطاً معيباً مذرياً ويكلمن الشبان على مرأى ومسمع من الناس بدون أن يخطر على بال واحدة منهن شيء من الحياء الذى كان شعار آبائهن وأمهاتهن من قبل . ولا يعرفن للعفة التى عليها صيانة الشرف وحفظ الذرية معنى ولا يدركن ان هذا العمل

يقضى على بناتهن واخوتهن وأقربائهن شر قضاء لأن الشبان الذين يجدون حاجتهم من أولئك العاهرات ينصرفون عن الزواج ويكتفون بالسفاح فتبور الفتيات ويصبحن عاطلات معرضات للخنا والفساد فأى شر بعد هذا الذى يفعلنه هؤلاء الفاجرات وأى ضرر بعد هذا الذى يلحقنه بنظام العمران وأى فساد بعد ذلك الفساد الذى يقضى على الادب والفضيلة ويعرض الفتيان والفتيات لأسوأ المحن وشر البلواء كما بينا ذلك فى مبحث الزنا واللواط . ألا ان ذلك لما تسيل من أجله العبرات وتذوب من اجله الاكباد . ومما يضاعف البلاء ويزيد فى المصيبة أننا قد منينا بقوم يظنون أن الفضيلة كل الفضيلة فى الاقتداء بغيرهم من الامم التى أتيح لها من القوة المادية ما يكون لها به السلطان على الضعاف فلا ينفكون عن تحريض النساء على الخروج عن الآداب باسم الحرية والمدنية ومنهم من يبالغ فى النكاية بالفضيلة فيجعل التهتك فى أرذل حالاته فضيلة من الفضائل وعلما من العلوم التى يجب أن تطلب ومن ذلك — الرقص — فانه أصبح عند هؤلاء فنا من الفنون التى يجب على المرأة أن تتعلمه وما عليها من بأس أن تخاصر من تشاء من الشبان وتلصق جسمها بجسمه وما عليها من حرج اذا وضعت سوأتها على سوأته على مرأى ومسمع من بعلها ان كان لها بعل وما عليها من عار اذا اختلت بذلك الشاب الذى رقص معها فى أى وقت شاءت . فهل بعد ذلك من فضيحة تقضى على الفضيلة شر قضاء الا نبؤنا أيها الظرفاء المتعلمون هل هذه الحالة هى التى تفيد المرأة فى حياتها المنزلية المستقبلة فتعلم منها كيف تسهر على تربية ابنائها وبناتها تربية تنفعهم وتنفع قومهم هل هذه الحالة هى التى تعلم المرأة كيف تصون عرضها وتحفظ نفسها وتكون مثالا حسنا لبناتها وبنيها . هل هذه الحالة هى التى تقضى على المرأة باحترام زوجها وعدم التطلع الى غيره ايا كان حاله فتدوم بينهما الالفة وتستمر علاقة الزوجية مصونة عن العبث أو هى على العكس من كل هذا تمرن المرأة على اللهو والخلاعة والانصراف عن تدبير منزلها وتلفت نظرها الى غير زوجها ان خالت فيه ميزة من جمال أو مال أو نحوهما وتكون مثالا سيئا لاسرتها وعارا على ذويها . لعلكم تقولون ان التربية الاخلاقية شىء والفنون الجميلة شىء آخر فمن كانت مصونة لايؤثر فيها ذلك شيئا . وهذا هو الذى نعيبه عليكم ونؤاخذكم به لانكم بذلك تجهلون بيئتكم التى تعيشون فيها وتحكمون على قومكم بغير أخلاقهم وطباعهم جهلا منكم بصفات النفوس وطبائع الناس بل هو جهل أو تجاهل بالمشاهد المحس — المحسوس — الذى لاينبغى أن يجهله أحد منكم . فكم رأينا أن التهتك جرّ الى فساد كثير من الاسر وأضاع حياء كثير من القبائل وقاد كثيرا من الفتيات والفتيان الى المجاهرة بالفسق والخروج على أهلهم وذويهم . وكم رأينا مصارع الفضيلة على مسارح الرقص . وكم شاهدنا حرمة الآداب تنتهك فى سبيل ذلك التهتك الذى يسمونه مدنية وحرية . وكم جرّ ذلك من أمراض أخلاقية وبدنية على الفتيان والفتيات . فهل تخفى ذلك على هؤلاء الذين يقولون ان التهتك والخلاعة والمجون لاعلاقة لها بالخنا والفساد ألا ان ذلك لجهل عظيم فان أسباب الشر تنتج الشر وأسباب الخير تنتج الخير فمن يتمسك بأسباب الفساد يلق الفساد بلا نزاع .

وأعجب من هذا وأشد مصيبة أنهم يتوسلون فى اغراء النساء على الخروج عن الآداب بأن المرأة شريكة الرجل فى الحياة فلا يصح أن يكون هو طليقا حراً وهى رهينة منزلها وأسيرة مخدعها

ويستدلون على انحطاط الأمة وعدم تقدمها فى المدنية بعدم رقى المرأة وجهلها. وفى هذا غاية العجب فان هؤلاء كأنهم يعتقدون أن الفساد وانتهاك حرمات الفضيلة والخروج على الآداب والأخلاق سبب فى رقى الأمم وسعادتها فيا أيها الناس بربكم قولوا لنا ما للرقى وما لرقص النساء على المسارح وتبرجهن فى الطرق ومغازلة الرجال والشبان ما للرقى ومال تعرض عفاف المرأة وصيانة عرضها للفساد . ما لرقى الأمم وخروج المرأة عن كل قيد من قيود الحياء . ومن قال إن الرجل طليق لاحرج عليه فيما يأتيه من الأعمال لاريب فى أن الرجل كالمرأة تماما فى جانب الفضيلة والرذيلة فما هو محرم عليه محرم عليها وما هو واجب عليه واجب عليها فكما لا يحل لها أن تضيع عفافها كذلك لا يحل له . وكما يحرم عليها اجتناب الوسائل التى تفضى الى ارتكاب الجرائم والموبقات كذلك يحرم عليه اجتنابها فاذا قلنا للمرأة لاتتبرجى ولا تنتهكى حرمات الفضيلة ولا تخالطى من يطمع فى عفافك وتجتنبى وسائل الفساد كذلك نقول للرجل غض بصرك عما لا يحل لك واجتنب كل ما يؤذى الناس فى أعراضهم واحذر أن تطمع فى سلب عفاف امرأة لا تملك عصمتها ولا تتوسل بأى وسيلة تفضى إلى ذلك وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) فلا فرق بين الرجل والمرأة فى التكاليف الشرعية إنما لكل منهما وظيفة يؤديها فى هذه الحياة كاملة ولكل منهما طبيعة يترتب عليها آثار غير طبيعة الآخر وعلى كل فرد من الأفراد سواء كان رجلا أو امرأة أن يتمسك بكل ما يترتب عليه صالح ويتجنب كل ما يترتب عليه سوء فالشريعة إنما تنهى عن الفحشاء والمنكر وتنهى عن التمسك بالأسباب التى توصل إلى ذلك . فاذا وجد بين الناس من يقول إن الفحشاء والرذائل لذات لايصح تركها فهؤلاء قد خرجوا عن موازين الانسانية وأصبحوا كالانعام لا هم لهم إلا اللذات فلا يغارون على أعراضهم ولا يخافون على بناتهم ونسائهم كما بينا لك فى مبحث الزنا. وهؤلاء لافائدة من إرشادهم ولا جزاء لهم إلا أن يبيدهم الله من المجتمع ويحفظه من شرهم — وبعد — فان الاسلام قد أمر النساء أن يتعلمن ما لهن وما عليهن من الحقوق والواجبات فمهما أمكن ذلك بالأدب والحشمة والوقار وعدم التعرض للفساد كان ضروريا ولقد كان المسلمون فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء الراشدين من أعز الأمم قدرا وأرفعهم مكانة وكانت نساء المسلمين يومئذ مهذبات مثقفات متمسكات بكتاب الله تعالى فلا يتبرجن ولا يتهتكن ولا يرقصن على المسارح ولا يطمعن أحدا فى عفافهن فهل كان ذلك جمودا قضى بتأخر المسلمين وانحطاطهن أو كان المسلمون يومئذ من أعز الأمم قدرا وأعلاهن مكانة وقد قهروا أشد الأمم يومئذ بطشا وأكبرهم قوة فهزموا الفرس والرومان وقضوا عليهما قضاء مبرماً بسبب تمسكهم بالفضائل الدينية وتجنبهم للرذائل الأخلاقية وصيانة أعراضهم ونسائهم من الفساد فمن كان مسلما يؤمن بالله ورسوله فليقتد بهؤلاء الكرام البررة وإلا فليتعرض للهلاك والدمار فى الدنيا والآخرة وما الله بغافل عما يعمل الظالمون

هذا بعض ما يجاهر به النساء من العصيان والخروج عن الأدب والحياء أما الرجال فانهم لايبالون بمهاجمة النساء وتحريضهن على الفساد واغرائهن على الاستمرار على حالهن بدون خوف على نسائهم وبناتهم كما تقدم فى مبحث الزنا وهم مع ذلك لايبالون من معاقرة الخمور جهارا ولا يستنكفون عن

كسب المال من أى طريق كان ولو كان فيه هلاكهم وفضيحتهم ولا يستحيون من الغش والخديعة والميسر والزور ولا يبالون بارتكاب الجرائم علانية بدون حياء ولا وجل وهذا غاية الفساد ونهاية الضلال فلا هم يتأثرون بالمواعظ ولا هم يزدجرون بالحوادث ولا هم يخافون من عقوبات دنيوية وامراض جثمانية ولا هم يخشون عذاب الله وعقابه يوم لا ينفع مال ولا بنون فلا حول ولا قوة الا بالله العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل

الصبر

هو من أجل صفات النفس وأعلاها قدراً فقد أثنى الله تعالى عليه فى أكثر من سبعين موضعا من كتابه العزيز ووردت أحاديث كثيرة فى الحث على الصبر ومدح الصابرين كما سيرد عليك

أما حقيقة الصبر لغة فهى حبس النفس عن الجزع أى منعها من الاستسلام له كى لا يترتب عليه فعل ما لا ينبغى وليس الغرض منه طرح الجزع رأسا لأنه أمر طبيعى لا يمكن الانفكاك عنه وظاهر أن المعنى اللغوى قاصر على الصبر عند المصائب . أما فى نظر الدين فهو أعم من ذلك لأنه حبس النفس عن الجزع ومنعها عن محارم الله . وإلزامها بأداء فرائضه يدل لذلك ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال الصبر فى القرآن على ثلاثة أوجه صبر على أداء فرائض الله . وصبر على محارم الله . وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى وقد رواه ابن أبى الدنيا من حديث على كرم الله وجهه ويمكن أن يجعل الصبر بالمعنى اللغوى شاملا للأمور الثلاثة لأن حبس النفس عن الجزع لازم لمنعها عما تتوق إليه من اللذات والشهوات فاذا ما منعها عن شهوة محرمة محبوبة لديه جزعت لذلك فمنعها عن الجزع على الشهوة المحرمة هو الصبر وكذلك هو لازم لأداء الفرائض والتكاليف لأن فيها مشقة على النفس فمن داوم على ادائها تجزع نفسه من المشقة فحبسها عن الجزع لذلك هو الصبر . على أن حبس النفس عن الجزع عند المصيبة مختص باسم الصبر فلا يطلق عليه اسم آخر فالصبر على المصيبة يضاده الجزع والهلع . وأما منع النفس عن الشهوات المحرمة فانه يطلق عليه اسم الصبر وغيره فمنعها من شهوة البطن والفرج أو المال المحرمة كما يسمى صبراً يسمى أيضاً عفة ومنعها عن الجزع عند لقاء العدو كما يسمى صبراً يسمى أيضا شجاعة ويقابله الجبن . ومنعها عن التعدى على الغير عند ثورة الغضب كما يسمى صبراً يسمى أيضا حلما وشجاعة كما تقدم بيانه ويقابله التذمر والطيش . ومنعها من افشاء حديث لم يؤذن فى افشائه كما يسمى صبراً يسمى كتمان السر . ومنعها من الاسراف فى اللذات الضارة كما يسمى صبراً يسمى زهدا ويقابله الشره ومنعها من الغرور بالثروة والمال كما يسمى صبراً يسمى ضبط النفس ويقابله البطر . وهكذا فكل شىء أمر الله به أو نهى عنه فتلقاه الانسان بالقبول والرضى ظاهراً وباطنا وعمل به ان كان أمرا واجتنبه ان كان نهيا فهو صبر وان كان له اسم آخر ولهذا قد ورد فى بعض الآثار ان الصبر هو الدين كله

وقد عرفه بعض الأخلاقيين بأنه ثبات باعث الدين أمام باعث الهوى . فأما باعث الدين فهو قدرة العقل على قهر الشهوة والغضب وهذه القدرة تحصل له من النظر فى قضايا الدين والعمل بها . وأما باعث الهوى فهو الشهوة والغضب لأنهما بطغيانهما يقودان المرء إلى مالا يقره الدين ولا يرضاه العقل فاذا ثبت العقل أمام الشهوة والغضب وقام بوظيفته على الوجه المطلوب فلا يجعل لهما عليه سلطانا ولا يسمح لهما بالطغيان فينقاد لهما صاغراً بل يكون هو الآمر الناهى فيسلك بهما سبيل الاعتدال بلا إفراط ولا تفريط فانه بذلك يستطيع أن يظفر بالصبر على حرمات الله وطاعته وأن يحبس نفسه عن الجزع عند المصيبة فلا يستفزه الجزع إلى قول أو عمل مالا يرضاه دينه مهما كان لنفسه فيه لذة . ومن ذلك الصبر على إيذاء الناس إياه فانه اذا أغضبه أحد بقول أو عمل فان غضبه لايطغى عليه فيحمله على التعدى حدود الله بل يكظم غضبه حتى يجرى على سنن الدين من القصاص العادل أو العفو (كما هو مبسوط فى موضعه كما سلف فيما تقدم . وقد ورد فى الكتاب الكريم مايشير لذلك قال تعالى (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل) وقال (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) . فللمظلوم الحق فى الانتصار من الظالم . واذا صبر على الاساءة وغفر لمن أساء اليه ذنبه فان ذلك من الأمور التى ينبغى أن يعزمها كل أحد لشرفها كما يأتى قريبا .

هذا وقد فسر الصبر بتفاسير كثيرة غير هذا . منها أنه الثبات على الكتاب والسنة . ومنها أنه ترك الشكوى . ومنها أنه هو الاستعانة بالله . وقال بعضهم الصبر أن لاتفرق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الى طرفيهما . وقال بعضهم هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب . وقيل غير ذلك

وما قدمناه لك هو أجمعها ويقرب منه تعريفه بأنه الثبات على الكتاب والسنة لأن من ثبت عليهما فقد صبر على المصائب وعلى أداء الطاعات واجتناب المحرمات

واعلم أن اظهار البلوى . إما أن يكون لله تعالى كما قال أيوب عليه السلام (إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) وهذا لاينافى الصبر . وإما أن يكون لغير الله تعالى فان كان لحاجة كشرح العلة للطبيب أو بيان المظلمة لمن يقدر على رفعها فانه لاينافى الصبر أيضا مادام راضيا بقضاء الله تعالى فلا يضجر ولا يتبرم مما ينزل به من البلاء . فان اشتكى لغير الله بدون فائدة تبرماً وضجراً لم يكن من الصابرين ولم يستفد من مصيبته سوى عذاب الدنيا وسيسأل عن ضجره من قضاء الله يوم القيامة خصوصا اذا كانت شكواه مصحوبة ببعض العبارات الجريئة على الله تعالى فانه يكون من أتعس الحمق لأنه بذلك يشكو الاله القادر الذى يرحم للعبد الضعيف الذى لايغنى عنه شيئاً

أقسام الصبر

قد علمت أن الصبر فى نظر الدين ينقسم الى ثلاثة أقسام . صبر على الطاعة . وصبر على المعصية . وصبر على المصيبة . وهذا التقسيم بالنسبة لما يتعلق به الصبر . وقد ينقسم باعتبار القوة والضعف

الى ثلاثة أقسام أيضا . لأن سلطة العقل ان كانت كاملة بحيث يتغلب بها دائما على الشهوة والغضب كان الصبر فى هذه الحالة على أتم حالاته . وانما يصل الى هذه المرتبة الصديقون المقربون . وان تقهقرت سلطة العقل أمام الشهوة والغضب فى معظم الأحيان كان الصبر فى أسفل درجاته . وهذه حالة الغافلين الذين تملكتهم شهواتهم وخلت قلوبهم من عظمة خالقهم . وان كانت الغلبة بين المتنازعين سجالا بأن تغلبت سلطة العقل مرة . وتغلبت سلطة الشهوة مرة أخرى كان الصبر فى وسط حالاته وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر شيئا عسى الله أن يتوب عليهم لأن فى جهاد الشهوة وقهرها فى كثير من المواطن رجوعاً الى الله تعالى وهو سبحانه واسع الرحمة والمغفرة فيقبل الحسنات ويعفو عن السيآت

آثار الصبر

ومنافعه

لاريب فى أن الصبر بجميع أقسامه ممدوح فى المواطن كلها الا فى المواطن التى تنتهك فيها حرمات الدين . والفضيلة . ويخذل فيها الحق فان الصبر فى هذه الحالة يكون جبنا . فالصبر حسن جميل سواء تعلق بأمر خطير أو حقير ولكنه يكون أجمل شأنا وأعظم أجراً اذا كان متعلقا بمصيبة عظيمة كفقد ولد نافع . أو كان متعلقا بشهوة لم تستطع النفوس البشرية أن تكف عنها بسهولة . كما اذا دعته امرأة ذات مال وجمال لنفسها فصبر على شهوته وقال انى أخاف الله . ومثل هذا قد اختصه الله بميزة عظيمة وهى أن يكون فى ظله يوم لاظل الا ظله . كما تقدم فى الحديث .

ومن هذا تعلم أن ماورد من التفاضل بين الصبر وهو أن الصبر على أداء الفرائض أقل درجة من الصبر على المحرمات وأن الصبر على المحرمات أقل درجة من الصبر على المصائب . ينبغى أن يحمل على ماسيناه لك . لأن التفاضل فى الواقع انما يكون بالنسبة لعظائم الأمور التى تظهر فيها تضحية الشهوات ويتجلى عندها ثبات العقل ومتانة الدين . على أن الصبر على صغائر الأمور قد يكون له فضل عظيم لأن النفس اذا تعودته فانه يسهل عليها الصبر على عظائم الأمور . فالصبر كله خير كما ستعرفه فيما سنذكره لك مفصلا

فاما القسم الأول . وهو الصبر على المصيبة فانه يتناول الصبر على موت الأحباب من الأهل والأصدقاء كما يتناول الصبر على البؤس والفقر وضياع الأموال ولقاء الاعداء فى ميادين القتال ونحوها . والصبر على السقم والاوجاع . وإيذاء الاهل والجيران وغيرهم واحتمال الآلام كالضرب الشديد والمرض العظيم والجراحة ونحوها . وقد أثنى الله على الصابرين عند المصائب وأعدّ لهم جزاء حسنا وأجراً كبيراً .

قال تعالى (والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) فالبأساء الفقر والبؤس . والضراء المرض . والبأس القتال . فمعنى الآية وأمدح الصابرين فى حال

الفقر والمرض وحين قتال الاعداء . ولقد وصفهم الله بأنهم الصادقون فى إيمانهم بربهم الموقنون باليوم الآخر فلا يبالون بحادثات الدنيا الزائلة..المتقون فى أعمالهم . وكفى بذلك مدحاً من رب العزة الذى بيده ملكوت كل شيء . وقال تعالى (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) فمن ابتلاه الله تعالى بنقص فى ماله أو منعه شيئا من شهوات الدنيا ولذاتها وعجز عن تحصيله بالوسائل المشروعة أو قبض اليه نفسا عزيزة لديه أو أخافه من عدو فانه لادواء له الا الصبر على ماأصابه . فاذا صبر المبتلى على مصيبته وعمل بقول ربه عز وجل فقد هانت عليه البلوى وضاع أثرها فاستراح من عذابها فى الدنيا وفاز فى الآخرة بالجزاء الحسن .

فالفقير الذى لاتبهره المناظر الكاذبة . ولا يذهب بلبه متاع الحياة الدنيا وزينتها ولا يحزنه مالا يستطيع الوصول اليه من ذلك المتاع الفانى بل يطمئن قلبه الى ماقدر له فى هذه الحياة من تعب ونصب ويرضى بما قسم له فلا يسخط ولا يفعل حراماً فانه لابد أن يجعل الله له من أمره فرجا فى حياته الدنيا . كما قال تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب) وهو فى رحمة الله ورضوانه يوم الخلود . أما الفقير الذى يزين له الشيطان والهوى ما فى أيدى الناس فيفسد قلبه بالوساوس الضارة والامانى الكاذبة والاحلام الباطلة فيحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ولايبالى أن يتمسك بأى وسيلة من الوسائل المحرمة فى الوصول الى شهوة لن تغنى عنه شيئا ولن تسد عنه فقره لهو من أتعس خلق الله وأضلهم وأشقاهم لانه بعمله هذا يكون قد خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين .

وكما أن الفقير محتاج للصبر على فقره . فكذلك الغنى محتاج للصبر على غناه لانه مكلف بحقوق وواجبات لايسهل على النفس فعلها من زكاة مال واغاثة ملهوف وانفاق من غير تبذير ولا تقتير الخ ماتقدم فى مباحث المال والا كان بطراً يعرض صاحبه للدمار . وكذلك من يصبر على فقد عزيز لديه فان مصيبته تهون عليه فى الدنيا وله على ذلك الجزاء فى الآخرة . فمن مات له حبيب كان من واجبه أن يرجع الى الله تعالى وأن يعلم أن كل شيء فى هذه الحياة صائر الزوال فليس من الحكمة أن يخرج المرء عن آداب دينه ويعرض نفسه لسخط ربه من أجل مصيبة مهما عظم خطبها . لان الانسان لم يخلق فى هذه الحياة الا هدفا للمصائب ورمية للأحزان وليس هو وحده الذى خص بالمصائب بل كل الناس فى ذلك سواء أولهم وآخرهم كبيرهم وصغيرهم . غنيهم وفقيرهم . يبتليهم الله تعالى بأكبر المصائب وأشد المحن من ألم ومرض وموت . ومتى كان الحكم عاما كان الصبر عليه أهون . وليس من اللائق بالمسلم أن يغفل عن هذه الحقائق ويفعل مالا يقره الدين ولا يرضاه العقل من لطم الوجه وشق الجيب والنطق بعبارات الكفر والهذيان . وقد يستخف الجزع بعض ضعاف النفوس فيرتكبون الجرائم من حيث لايشعرون . وقد يذهب عقل بعضهم ويصبح مجنونا فان كل ذلك غفلة عن نظام الله فى خلقه وطمع فى المحال فان المنية لن تترك أحداً وان الضيم والشقاء فى هذه الحياة لادافع له . ويعجبنى فى ذلك قول بعضهم :

من رأيت المنون خلدن أم * من ذا عليه من أن يضام خفير

نعم ان الجزع أمر طبيعى فى الانسان كما ذكرنا ولكن الذى يكلف به المرء انما هو الكف عن فعل مالا يليق والتسلية بمصائب الناس وأرزائهم والتأدب بآداب الدين فاذا وجد بعد ذلك أثراً للجزع والحزن فى نفسه فانه لايؤآخذ عليه لانه يكون قد فعل ماهو داخل تحت اختياره . على أن من يعلم أنه هالك لامحالة وأنه لابد أن يرجع الى ربه ويلحق بمن مات اما عاجلا أو آجلا فان حزنه يذهب سريعا وجزعه ينتهى فوراً .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ومن يتصبر يصبره الله » من حديث رواه البخارى ومسلم ومعناه أن من يتكلف الصبر ويعمل بوصايا الدين الواردة فى شأنه فان الله يمنحه الصبر ويسهل له تحصيله . وكذلك من يصبر عند الخوف من لقاء العدو فانه يستطيع بالصبر أن يثبت فى نهاية أمره وأن لايضيع شجاعته من أجل خوفه وفزعه فيخدم بذلك دينه وأمته ويظفر بثناء الناس ورضاء الله فى الدنيا والآخرة .

فأجر الصابرين عظيم فى الدنيا والآخرة كما يستفاد من الآية الكريمة فانها تبشرهم بأمور ثلاثة .

أولها : صلوات الله عليهم والصلاة من الله على عباده الرحمة وهو الكثير الشائع عند أهل اللغة وقد تطلق على المغفرة والثناء وهو المناسب هنا حتى لايتكرر مع قوله تعالى (ورحمة) . ثانيها الرحمة . وقد عرفت مما تقدم انها بالنسبة لله تعالى صفة تناسب ذاته التى ليس كمثلها شىء وبها ينعم الله على عباده بنعمه فى الدنيا والاخرة فيمدهم بما يحتاجون اليه فى حياتهم الاولى ويمحو عنهم سيآتهم ويدخلهم جناته فى الحياة الآخرة . ثالثها الاهتداء . وهو الفوز بالمطالب الدنيوية والاخروية والى ذلك يشير قول سيدنا عمر رضى الله عنه - نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين - يعنى بالعدلين الصلاة والرحمة . وبالعلاوة الهدى . رواه الحاكم وغيره . والعدل بكسر العين الحمل الذى يوضع على البعير مقابل حمل آخر . فالحملان هما العدلان والعلاوة بكسر العين مايوضع فوق الحملين فهو قد شبه الصلاة والرحمة بالحملين وشبه الاهتداء بالعلاوة التى فوقهما . ومتعلق البشارة محذوف مجمل . أى بشرهم يامن يتأتى منه البشارة باحسن البشائر وأجلها وقد فصله الله تعالى بقوله (أولئك عليهم صلوات) الخ

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) قال أخبر الله عز وجل أن المسلم اذا سلم لأمر الله فاسترجع عند المصيبة . كتب له ثلاث خصال من الخير . الصلاة من الله والرحمة . وتحقيق سبيل الهدى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفا يرضاه » رواه الطبرانى . وعن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته قبضتم ولد عبدى فيقولون نعم فيقول قبضتم ثمرة فؤاده فيقولون نعم فيقول ماذا قال عبدى فيقولون حمدك

واسترجع فيقول الله تعالى ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد » رواه ابن حبان فى صحيحه . ورواه الترمذى

وروى فى الصحيح أن الرميصاء أم سليم لما مات ولدها من زوجها ابى طلحة فقالت لما دخل لا يذكر أحد ذلك لأبى طلحة قيل فلما جاء وسأل عن ولده قالت هو أسكن ما كان فظن أنه عوفى وقام وأكل وشرب وتزينت له وتطيبت له فنام معها وأصاب معها فلما اصبحت قالت له احتسب ولدك فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال « بارك الله لكما فى ليلتكما فجاءت بولد هو عبد الله بن أبى طلحة فأنجب ورزق اولادا قرؤا القرآن منهم عشرة كملا وروى جابر بن عبد الله أنه ﷺ قال رأيتنى دخلت الجنة فاذا بالرميصاء امرأة ابى طلحة »

فانظر الى الجزاء العظيم فلقد نالت أجرها فى الدنيا بما رزقها الله من بنين نجباء وستكون فى جنات النعيم يوم القيامة لأن رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حق لاريب فيها وقوله صدق لاشك فيه وهو الصادق الأمين فى كل حال . وكذلك من يصبر على مرض يصيبه فان الله تعالى يثيبه عليه ويكفر عنه من سيئاته سواء كان قليلا او كثيراً فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن شىء يصيب المؤمن فى جسده يؤذيه إلا كفر الله به عنه من سيآته رواه أحمد والحاكم وقال صحيح على شرطهما ورواه غيرهما وقال عليه الصلاة والسلام ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله له بها من خطاياه رواه البخارى ومسلم . وقال عليه الصلاة والسلام إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا رواه البخارى وغيره وقال ﷺ إن الله عز وجل قال إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة يريد عينيه رواه البخارى وغيره . وقال عليه الصلاة والسلام إن الله ليبتلى عبده بالسقم حتى يكفر عنه ذلك كل ذنب رواه الحاكم وقال صحيح على شرطهما

ولاريب فى أن ذلك الجزاء منوط بالصبر والعمل على مايرضى الله تعالى وقد ورد فى بعض الاحاديث الصحيحة أن الله تعالى يبدل الصابر على المرض الذى لايشكو فيه لعوده عافية خيراً مما كان عليها فاذا قبضه اليه ادخله الجنة . وكل هذا دليل على عظم قدر الصبر على المصيبة فى النفس والولد والمال وعلى علو منزلة الصابرين عند ربهم وعلى ما يدخره الله لهم من الجزاء الاوفى فان من يثنى عليه ربه فى كتابه الكريم ويبشره برحمة منه ومغفرة واهتداء ويخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما سمعته لهو جدير بأن يكون من المقربين الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون . وكذلك الصبر على أذى الناس وظلمهم اذا كان لا يستطيع الانتصار منهم أو كان يستطيع ردهم والانتصار منهم ولكنه عفى عنهم وغفر لهم إذا كان العفو يصلحهم ولم يكن الذنب متعلقاً بعرض أو دين كما تقدم غير مرة فمن صبر على ظلم الناس وإيذائهم فان الله تعالى كفيل بنصره فى الدنيا والآخرة وقد مدح الله الصبر فى هذه الحالة فقال تعالى (لتبلون فى اموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور) الابتلاء بمعنى التجربة التى تعلم بها حقيقة لم تكن معلومة محال على الله تعالى فمعنى لتبلون لتعاملن معاملة المختبر ليظهر ماعندكم من الصبر والثبات على الحق وان كان لايخفى على الله خافية من أمركم

فى حاضركم ومستقبلكم والابتلاء فى الأموال بالفرائض التى فرضها الله عليهم وبما يجتاحها من الحوادث وفى الأنفس بالقتل والأسر والجراح وفقد الأهل والأحباب والمخاوف وغير ذلك وقوله ـ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ـ هم اليهود والنصارى ـ ومن الذين أشركوا ـ هم كفار العرب ـ أذى كثيرا ـ كالطعن فى الدين وتخطئة من آمن والافتراء على الله تعالى ورسوله وقوله تعالى ـ فان ذلك من عزم الامور ـ مأخوذ من قولهم عزمت على الامر اذا عقدت القلب على فعله ووطنت النفس عليه ويصح نسبة العزم الى الله تعالى على ان يكون بمعنى الارادة ومنه قولهم عزمات الله تعالى بمعنى ارادته فعزم الامور أى الامور التى ينبغى أن يعزمها كل عاقل لما فيها من الشرف والمكانة الرفيعة وقال تعالى (ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) وقال تعالى (واصبر على مايقولون واهجرهم هجراً جميلا) وقال تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وفى هذه الآية دلالة على ان من قدر على أن ينتصر لنفسه فعليه أن لايتجاوز حقه فيعاقب باكثر مما عوقب به واذا صبر وترك القصاص لهو خير له اذا كان يترتب عليه خير . أما اذا كان يترتب على العفو شر فان القصاص يكون لازما كما تقدم

واما القسم الثانى وهو الصبر على المعاصى فانه لازم لسعادة الانسان فى دنياه وآخرته فان الله سبحانه نهى عباده عن الفحشاء والمنكر ليعيشوا فى هذه الحياة الدنيا آمنين مطمئنين لا ينال أحدهم من عرض أخيه بالقول والفعل ولا يعتدى أحدهم على غيره فى ماله وبدنه ولا تغرهم الحياة الدنيا وزينتها فيسعون فى الارض فسادا من أجل الحصول على لذاتها الفانية وشهواتها الفاسدة فمن يصبر على ضبط لسانه عن الحرام فلا يغتاب ولا ينم ولا يقذف ولا يشهد الزور ولا يؤذى به أحدا من خلق الله ولا ينطق بالفحش ولا يمزح الا بالحق ولا يكذب ولا يساعد بقوله ظالما ولا يجادل بالباطل . ولا يخاصم ليقتطع حق غيره فانه بذلك يتقى آفات اللسان التى تفضى بالمرء الى الهلاك فى الدنيا والآخرة . ومن يصبر على حفظ فرجه فلا يستعمله الا فيما احله الله له فقد نجا من شر غوائل الزنا واللواط وكان أمينا على سلامة عرضه وحفظه من الضياع . ومن صبر عند غضه فلا يبطش بيده ولا يهجو بلسانه ولا يحقد بقلبه فقد سلم من مظالم خلق الله تعالى وكان مسلما حقا كما قال رسول الله ﷺ «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» ومن صبر على مالا يملكه من الشهوات واللذات فقد نجا من الم الحسد والحقد وظفر بسكون النفس وراحتها وهكذا فى كل مانهى الله عنه سواء كان متعلقا بحقوقه أو حقوق عباده

وأما القسم الثالث وهو الصبر على أداء ما فرض الله تعالى فهو مرتبط بالصبر عما نهى عنه فانه سبحانه قد أمر عباده بالفضائل ونهاهم عن الرذائل قال تعالى « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) فمن صبر على عبادته تعالى من صلاة وصيام وحج فقد طهر قلبه وتنزه عن الفحشاء . ومن صبر على ايتاء الزكاة وبر الوالدين وصلة الارحام ومواساة البؤساء واعانة الفقراء وتربية الأيتام واداء حقوق الجوار والاحسان الى الناس وغير ذلك

من الواجبات والحقوق التى سيأتى بيانها فى الجزء الثانى ان شاء الله فانه بذلك ينجو من شقاء الدنيا ويسلم من عنائها ويظفر فى الآخرة بالسعادة الكاملة من ملك دائم ونعيم مقيم

من أجل ذلك كان الصبر من أحسن صفات النفس وأعظمها ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وما أعطى أحد عطاء خير وأوسع من الصبر » من حديث رواه البخارى ومسلم . وقال تعالى (وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقال تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وقال تعالى (واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون

تم الجزء الأول . ويليه الجزء الثانى

obeikandl.com

اصلاح خطأ

وقع أثناء الطبع بعض أخطاء مطبعية لاتخفى على حضرات القراء . ولكنا رأينا إثبات المهم منها هنا إتماما للفائدة .

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٢٩	٤	طبيعى	طبيعية
٣٦	٣٠	مدخوا	خدموا
٣٧	٢١	شقاؤها	شقائها
٤٣	١٣	بذلك آثما	بذلك يكون
» »	١٤	يكون يكون	يكون
٥٠	٢٨	لم يجرى	لم يجر
٥٢	١١	وإن كانت	إن كانت
٦٢	١٤	منعهم	منهم
٦٣	٧	عشر ألف	عشر الفاً
» »	٢٨	نسكفيكه	نكفيكه
٦٤	١	لأمر	الأمر
» »	٤	من نشئته	نشأته
٦٥	١	لايثنينى	لايثنى
٧٣	١٥	المسيهجنة	المستهجنة
٧٤	١٢	أضرب للسهام	أضرب للهام
٧٥	٨	الخلقة	الخلقية
٨٢	١١	الميراث	المرانة
٨٥	٢٧	داخـل	داخلان
١١٣	٢٠	الدواء	الدوائر
٤ » »	٢٣	المغرورون	المغرورين
١٢٣	٤	نخطر	يخطر
١٢٦	٢٣	عليها	عليهما
١٢٧	١٥	العالين	العادين
» » »	١٧	السريرة العلانية	السريرة والعلانية
١٥١	٢٠	مالهم وما عليهم	مالهن وما عليهن

سقط من صحيفة (٥٩) سطر (١٧) كلمات « والذى نفسى بيده لوددت أنى أقتل فى سبيل الله »

obeikandl.com